مِنَ العَدوى الثوريّة إلى الحَرب الذريّة

الجنرال اندريه بوفر

تعريب: أكرم ديري
المقدّم الهيثم الايوبي



دار الطليعة - بيروت

اهداء

الى الاخ المناضل السيد صبحي عبد الحميد

مع خالص الود والتقدير .

١٢/١١/١٩٧٢ مصر العربية

من العدوى الثورية

الى الحرب لذرية

الطبعة الاولى

ايار (مايو) ١٩٧٢

الجنرال اندريه بوفر

من العدوى الثوريّة الى الحرب الذرّية

تعريب : أكرم ديري
المقدّم الهيثم الايوّبي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

مقدمة المعربين

هذا الكتاب الرابع الذي تقدمه اليوم دار الطليعة للجنرال اندريه بوفر بعد كتاب « مدخل الى الاستراتيجية العسكرية » وكتاب « الردع والاستراتيجية » وكتاب « استراتيجية العمل » ، هو محاولة لاستقراء التطور المقبل في الحضارة الغربية قام بها هذا الكاتب والعالم الذي يعتبر اليوم في العالم الغربي من أبرز الكتاب السياسيين والعسكريين في شؤون السياسة والحرب والاستراتيجية ، والفلسفة السياسية . ويشكل الكتاب على حد قول **بوفر** مسودة عجلى كتبها وسط أحداث جد متحركة . ويعترف بأنها محاولة أولية لحساب اتجاه الاحداث التي يعاصرها العالم اليوم لاستخلاص الاستنتاجات منها حول السلوك الواجب اتباعه لتخفيف الآثار السيئة المترتبة عليها . وقد دفعه الى كتابة هذا الكتاب أحداث مايو (ايار) في عام ١٩٦٨ في فرنسا ، وأحداث تشيكوسلوفاكيا في مارس (اذار) من العام ذاته .

وفي الحقيقة ، لا يمكن فصل هذا الكتاب ، كما لا يمكن فهمه بعمق مستقلا عن مجموعة الكتب الاخرى التي كتبها المؤلف نفسه بما فيها كتاب « بناء المستقبل » الذي سيصدر قريبا أيضا . ولا يمكن عزل هذا الكتاب عن نمط تفكير الكاتب ، واسلوب حياته ، والحضارة التي يتطلع الى اقامتها ، لانه بورجوازي غربي من حيث تكوينه واسلوب تفكيره ، عاش ازدهار الحضارة البورجوازية الاوروبية ويعيش افولها اليوم

بكل ما تمثله من سيطرة واستغلال وحرمان لحريات الشعوب الاخرى ، ويرى صراع حضارتين جديدتين تحاولان أن تسودا هذا العالم ، هما الحضارة التي تمثلها الماركسية ـ اللينينية، وكل ما تشتمل عليه من تبدلات وتغيرات ، ومكاسب ، وحضارة « الوفرة » التي تمثلها الولايات المتحدة الامريكية بكل ما فيها من قيود ، وما تتعرض له من رفض في داخل المجتمع الامريكي وامتداداته في كل انحاء العالم .

وبعد أن شرح بوفر مراحل التطور الحضاري بدءا من الحضارة المسيحية وحتى الحضارة المادية ، وناقش المجتمعات الحرة ، والمجتمعات المادية ، واستطرد الى انتشار الاتجاهات المدمرة التي تمثل حركة رفض للاوضاع السائدة حاليا في البلاد المفرقة في رأسماليتها وتطرفها ، والبلدان الاقل تطرفا منها ، يخلص من كل ذلك الى التأكيد بأن هناك حضارة جديدة تعد وتهيأ ، ولا بد للانسان الذكي والعاقل في المجتمع من أن يؤثر فيها لخلق مجتمع فريد خيالي طوباوي ، يتمسك بالقيم الدينية سعيا وراء الوصول الى «الملائكية الأرضية» ، وهي في الفكر الغربي حذلقة من نوع جديد عصري ، وعلى وجه الخصوص عند الحديث عن تطور الادب والفكر والفن.

ان بوفر يدعو في هذا الكتاب الى وضع نظرية كونية ثورية جديدة شاملة لا تنكر القيم الروحية لان للانسان معتقدات وايمانا بغير المدرك في هذا العالم ، ونراه تارة يعترف بضرورة التطور والتأثير على مساره ، كما نراه تارة اخرى متعصبا ومحافظا الى أبعد الحدود يتحدث كغربي متعصب . وكما نراه أحيانا متحمسا للتطور ومسايرة العصر الحالي ، نراه احيانا اخرى ينطلق من القواعد والاسس الغيبية للحضارة الغربية محاولا بعثها ودب الحياة فيها .

وقد قسم بوفر المسألةالثورية في العالم الى قسمين :

١ ــ المسألة الثورية للعالم الاشتراكي في الشرق الذي تتهدده على حد قوله الليبرالية والماركسية الثورية الصينية على حد سواء .

٢ ــ والمسألة الثورية للعالم الراسمالي الغربي .

فبالنسبة للاتحاد السوفييتي ، يؤكد بوفر أن كل التحركات الثورية فيه تؤكد بأنه على الجزء المنحدر من المنحنى الماركسي ، وأن كل الدلائل تشير فيما يتعلق بأحداث تشيكوسلوفاكيا الى ظهور الستالينية الجديدة ، وغلبة الاتجاه الى استخدام القسوة ، مع أنه يعترف من ناحية أخرى ان الاتحاد السوفييتي عندما تدخل في الازمة التشيكية حاول بشتى الوسائل تجنب العنف واحتواء الاحداث بالرفق . ونسي بوفر حقائق الوحدة الأممية ، ووحدة الصراع ضد الامبريالية أمام وحدة الهجمة الامبريالية ، كما نسي أن الاتحاد السوفييتي لم يخض حتى الآن أي حرب استعمارية ، ولن يخوض . وتجاهل دوافع الغرب الاساسية في تأزيم الموقف في أوروبا الوسطى مع ان اهتماماته الاساسية تنصب عليها في الدرجة الاولى . كل هذا في نظره دلالة على تآكل الايمان الماركسي المتعصب في الاتحاد السوفييتي . كما أن احداث فرنسا في مايو (أيار) كانت أول أزمة حضارية عنيفة أعدتها الكتب المدمرة اللا اخلاقية ، والفن ، والسينما ، والانتليجنسيا التي لا تتمتع برؤية واضحة وبمثل اعلى واضح كل الوضوح . ويتساءل بوفر عن سبب حدوث اول شرارة ثورية في فرنسا بدلا من أن تحدث في بريطانيا ، مع أن التفاوت هائل جداً بين العصر والمؤسسات فيها . ومع أن هناك بلدانا غربية غير مستقرة هي ايطاليا ، وهولندا ، وبلجيكا ، واسبانيا ، والبرتغال ، تعاني من تناقضات عنيفة

جدا ، وكان من المفروض ان تندلع اول شرارة ثورية منها . ومما لا شك فيه أن للثورة الجزائرية في نظر بوفر اثرا كبيرا على ظهور هذه الشرارة الاولية في فرنسا .

وقد دفع بوفر الى كتابة هذه المحاولة وجود ازمةالحضارة على حد قوله ، ووجود التحركات الثورية في أوروبا المتأثرة بالماوية والجيفارية على جداول أعمال الحكومات ... وان الحكومات تجابهها ببعض الاصلاحات ، التي ربما انها لن تكون اصلاحات جذرية . فمن أهم الضرورات لمعالجة هذه الازمة وجود نظرية شاملة جديدة وجاهزة ، تعوض عما في هذا العصر من تخلف فكري خطير ....

وقد عالج بوفر في الجزء الاول من الكتاب احتمالات التطور الثوري ، ووضع بيانا بالحلول البارزة . وحاول في الجزء الثاني اكتشاف الاحداث القادرة على صنع التغيرات المطلوبة للتطور وحساب آثارها ونتائجها . ثم استعرض في الجزء الثالث صور المستقبل وأفضل الصور احتمالا للعالم الغربي .

على أن بوفر يؤكد بأن حساباته تقريبية .... وهي تطبيق للطريقة العملية في تنظيم الحاضر على ضوء معطيات المستقبل .

ان أزمة الحضارة في نظر الجنرال اندريه بوفر تعني تبديلا في الفلسفة السائدة ، أو تبديلا في الدين المعتنق أو في المفاهيم . وليس هذا بغريب عليه ، فالاستراتيجية في رايه تنبع عن العقيدة ، ومن لا يتمتع بعقيدة أو فلسفة معينة لا يستطيع ان يضع اية استراتيجية شاملة واضحة . فقد نتج عن الحرب العالمية الثانية ، وانتصار العملاقين الامريكي والروسي ان انتشرت الشيوعية فشملت اوروبا

الوسطى والصين ، في حين افرزت الولايات المتحدة شكلا من الرأسمالية المستندة الى تقدم التقنية ، واقامت حضارة « الوفرة » التي اكتسحت اوروبا بسرعة . هاتان الصيغتان ، حسب رأي الجنرال بوفر هما صيغتان مرفوضتان وهرمتان ... كما انهما تتنازعان الحضارة البورجوازية التي تحتضر .

وفي مناقشة بوفر لاسس الفلسفة الماركسية ـ اللينينية يشبه شرعية الحزب الشيوعي فيها بشرعيةالكنيسة في القرن العاشر ، ورغم اعترافه بأن هذه العقيدة حققت كثيرا من المكاسب الصالحة لتكون نموذجا ، فانه يرفض فيها طريقة بناء المجتمع الذي يشبهه بمجتمع الحشرات ، ويركز على الارغام الحكومي ... ومن هنا فان الحركة الثورية في الاتحاد السوفييتي ، في رأيه ، تستهدف تخفيف الالزامات الفردية ، وتلطيف اذعان الفرد للدولة ، والوصول الى صوفية جديدة تتطابق مع الحرية التي يتطلع اليها كل كائن بشري وتتطابق مع أزمة الحرية والديموقراطية التي يعانيها العالم كله .

أما حضارة « الوفرة » ، القائمة على نظام الاستهلاك ، والتي ظهرت في أمريكا نتيجة التطور السرطاني للحضارة البورجوازية ثم شمل أوروبا الغربية .... والتي ظهر بموجبها وبواسطة سحر الثنائي المتكامل أستهلاك ـ انتاج ان بالامكان زيادة الناتج القومي من ٥٪ الى ١٠٪ كل عام.. وبواسطة هذا النظام نهضت أوروبا الغربية واليابان ، فقد ثبت أن لهذا النظام حسناته وسيئاته أيضا . فقد انتشر **اسلوب الحياة الامريكية** بفضل وسائل الدعاية القوية وأشاع بذور العنف والجنس .. ونشر الاتجاهات المدمرة كلها كتعويض عن الانظمة القديمة . ثم سرعان ما اكتشف بعض

الامريكيين « اللاملتزمين »ظلم السياسة الامريكية، والحرمان الذي يعانيه الزنوج في أمريكا ذاتها ، والتمييز العنصري ، والامبريالية الامريكية الانانية واللاواعية .

وبعد هذا التحليل الذي يرى فيه اندريه بوفر افول الحضارتين وموت الحضارة البورجوازية ، يحاول استشفاف الملامح الرئيسية للنظام الجديد الذي يتهيأ ، والحضارة الجديدة التي ستخرج مؤلفة من العناصر الايجابية التي تتضمنها كل حضارة من الحضارات السابقة . وهنا يناقش اثر العلم على الحضارة واثر الوفرة ، وتطلع الانسان الى المزيد منها ، ويحلل حركة الرفض المتجلية في أوساط الشبيبة ويعزوها الى روح فوضوية عميقة والى رد فعل عفوي ازاء الاشباع الذي فرض عليها في كل المجالات ،والى تخلف الفكر الحديث ، وعدم وجود **هدف واضح** محدد ومقبول لها في حياتها ، ولانعدام وجود **القيادة والمثل الاعلى**.

وكل هذا ناجم في رايه عن نظام التعليم القاسي والمتحجر ، وكذلك نظرا للافتقار الى فكر عميق اخذت الشبيبة معه تقلد ثورات عالم الفقر ، والعوز .

وفي مواجهة هذه الهبة ، وقف رد محافظ قوي .. الا ان هذا الرد المحافظ لن يستطيع ان يستمر في ردعه وقمعه اذا لم يكتشف الحلول التي تتضمنها الازمة . وهكذا يدعو بوفر الى تغيير نظام التعليم ، واصلاح الجامعات ، وتطوير النظام الراسمالي نحو تنظيم أعمق واكثر مرونة واكثر ديموقراطية . فمستقبل الحضارة التي تشير كل الامائر الى ولادتها يعتمد اساسا على انماط القيم وعلى النخبة التي تعرف كيف تحركها وتطورها .

ثم استعرض بوفر في الجزء الثاني من الكتاب الاحداث المختلفة التي استشعر احتمال وقوعها على ضوء الاحداث

البارزة والمعاصرة بدءا من ازمة ثورية في الاتحاد السوفييتي (انطلاقا من الشيوعية) حدد البعض وقوعها في ١٩٧١ – ١٩٧٢ ، وقبل عام ١٩٧٥ .. مع مختلف الاحتمالات فيها ، الى أزمة ثورية في أوروبا الغربية واحتمالاتها المتعددةواثرها على مستقبل أوروبا والعالم كله . وفي توقعه لكل هـذه الاحتمالات ، لم يستثن بوفر حتى السويد وسويسرا من نضجالتطور الثوري فيهما .اما امريكا ، فانها ستعاني ايضا من أزمة ثورية قد لا تكون وشيكة الوقوع ، الا ان هذا البلد سيلعب في كل الاحداث العالمية دور القطب الرجعي .

وفي آسيا تشكل الصين القطب الثوري في عصرنا ، وقد تنجح الماوية أو تخفق في الصين ، وقد تتبدل فيها القيادة الحالية بقيادة أقل تشددا أو اكثر تعصبا . أما اليابان فيرى بوفر ان انفجارها سيكون عنيفا رغم متانة بنيتها الاقطاعية . ولكن الاحتمال الاقوى هو أن تشكل قطب نظام لبعض الوقت . وبالنسبة الى جنوب شرقي آسيا فانه في ازمة منذ ٢٠ سنة ، وقد انهكته الحروب التي خاضها رغم وجود تحولات عميقة فيه .

أما الهند فانها تعيش في صعوبات مزمنة ، وقد تتعرض لفوضى لكنها لن تتعرض لثورة كبرى .

ويشكل الشرق الاوسط منطقة اضطرابات دائمة ،وهو في ازمة مكشوفة بسبب وجود اسرائيل . ولهذه المنطقة اهمية عالمية كبرى بسبب مواردها البترولية الهائلة الامر الذي يجعل منها ساحة للمنافسات الدولية المثيرة للتفتت والتفكك . واذا استمر النزاع العربي – الاسرائيلي فاندولة عربية كبرى ستولد ويصبح مستقبل اسرائيل محاطا بالشكوك . وتشكل اسرائيل مفجر الخطر في منطقة من اكثر مناطق العالم اضطرابا .

أما افريقيا فانها تنضج ثوريا بسبب المنافسة القائمة فيها بين النفوذ الامريكي والسوفييتي والصيني . وتلعب روديسيا والمستعمرات البرتغالية في جنوب القارةالافريقية نفس الدور الذي تلعبه اسرائيل ازاء الحركة العربية .

وهكذا يرى بوفر أن الخمائر الثورية موجودة في كل مكان في العالم الى حد ما ومن الصعب التنبؤ بمسارها .

ثم يستعرض بوفر مختلف احتمالات الازمة الثورية في العالم . وهنا لا بد من الاشارة الى أن بوفر يعني بكلمة « الثورة » **ظواهر مختلفة جدا بدءا من العصيان المسلح ، الى الانقلاب العسكري السلمي ، ومن عمليات القمع القاسية الى التحولات المحققة دون استخدام القسر** . ويشير هنا الى أن الثورة الفرنسية لم تحقق اهدافها الا بعد مائة عام تقريبا ، كما ان الثورة الروسية احتاجت الى ٣٠ عاما والى حربين عالميتين حتى شملت الشيوعية « نصف الكرة الارضية » .

الا أنه في كل تحليلاته وفرضياته يلتزم بكل ماتوصل اليه من حقائق استراتيجية في هذا العالم . فالنزاعات الثورية قد لا تتسم في نظره بالعنف نظرا لتطور الردع المعنوي في العالم ردا على استخدام النازيين واليابانيين للقوة وعدم تحولها الى حسم عملي . ونسي أن يذكر عدم جدوى استخدام القوة الفرنسية في فيتنام ، وفي الجزائر ، وكذلك استخدام القوة الامريكية في مسارح جنوب شرقي آسيا . ولهذا فان طابع الثورات المقبلة هو **الحرب الاهلية الباردة** ، نظرا لحساسية الراي العام العالمي ، وهشاشة الاقتصاد الحديث ، وامتناع الحكام عن استخدام القوة ، وماكيافيلية الثوريين . وهكذا فان الطابع العام للنزاعات الحالية هو الطابع السياسي ــ العسكري ، فالطابع العسكري لم يعد قادرا على حسم اية مشكلة ، وافضل الوسائل هي وسائل

الحرب الثورية ، لان الاستراتيجية النووية تفسح المجال لاستراتيجية شاملة ذات ايحاء تفساني .

وفي كل التحليلات ، لا ينسى بوفر اثر القوة النووية وعدم امكان استخدامها في الصراعات الداخلية ، ويدلل على ذلك ببقاء بسين كيانغ مقر الصناعة العسكرية الذرية الصينية بمعزل عن النزاع الذي تم في الصين خلال الثورة الثقافية بين ماوتسي تونغ وليوتشاوشي . ويؤكد بوفر أن اي تحرك ثوري في الاتحاد السوفييتي سيستهدف التحرير من الالزامات التي تفرضها العقيدة الماركسية ـ اللينينية ، وخاصة فيما يتعلق بالفكر . وربما يتخذ شكل هذا التحرك شكل ثورة مثقفين ، او ثورة قصور ، او انقلابا بمعونة الجيش والشرطة .

ولهذا يدعو بوفر الى التأثير على بعض عوامل التطور ، بوضع علم سياسي اكثر تطورا من العلم الحالي ، وانشاء مراكز للدراسات في كل المجالات ، والى اقامة المخابر الفكرية . وان أفضل اتجاهات الجهد الميمونة في الغرب هي الاقتصاد ، والتعليم ، والاعلام وبنية الدولة . ويخلص من كل هذا الى اقتراح الحلول التي تسمح بتجنب الازمات أو تحديد اطارها ، بغرض الوصول الى مثل أعلى يحقق تسوية منسقة بين المادية الحتمية والروحية التي تستطيع أن تعطي معنى معنويا للمصير البشري .

وهكذا تكتمل الاستراتيجية التي يحاول بوفر وضع اسسها كعلم جديد مرتبط بالتقنيات الاخرى ، وكمجال يحتاج الى كثير من التنبؤات والى حساب دقيق للفرضيات ، حيث ينبغي أن نتدخل في الوقت المناسب مع تحاشي روح المغامرة ، وحيث يتغلب الاهتمام بالمستقبل على الاهتمام بالحاضر للحيلولة دون حدوث مخاطر ومآسي .. وان

الاستراتيجية فن جديد لا يسمح بالعمل بيقين الا اعتمادا على علم سياسي مضمون أقوى وأعمق من العلم السياسي الحـالي .

★★★

يعتبر بوفر قمة من قمم التفكير الغربي ومخططـا استراتيجيا فذا . وهو الوريث لكل قيم الامبريالية والمدافع عن الحضارة التي ازدهرت قرونا طويلة منذ عهود الاستعمار والتسلط وقهر الشعوب ونهب ثرواتها ، ويتلمس طريقـا لخلاص هذه الحضارات الآفلة .

وهو يجهد دوما في مؤلفاتـه المتعددة الى توضيـح اسباب اضمحلال الحضارة الامبريالية ، وقد حالفه التوفيق في هذا المضمار الى حد ، ولكنه تعثر كثيرا في التماس الحلول لانقاذها ، بله انعاشها وازدهارها في اطار قيمهـا القديمة . وكنموذج لتفكيره فانه يذهب الى ان اسرائيـل باعتبارها مفجر الخطر في منطقة الشرق العربي ستكـون عاملا لقيام دولة عربيـة كبرى . والحقيقـة أن الوجود الاسرائيلي الاستعماري ، وابعاده الاقتصادية والسياسيـة والعسكرية والديموغرافية يشكل تحديا مصيريا للامةالعربية لابد من الرد عليه برد وحدوي اشتراكي ثوري على مستوى التحدي .

ولذلك فاننا نضع هذا المؤلف الاستراتيجي القيم بين ايدي النخبة من القادة والمسؤولين والمثقفين العرب ، باعتبار ان الاستراتيجية موضوع اهتمام هذه النخبة وهي محـور عملها ، كنمط لتفكير المع استراتيجيي الغرب في أيامنا . ولا شك أن الفائدة من هذا الكتاب ستكون عظيمة اذا ما تعرفنا

الى التفكير الغربي المعاصر في اوضح صوره واجلى بيانه وكيف انه يخطط للمدى البعيد .

ان أهمية هذا الكتاب بالنسبة الينا هي ما يلي :

١ ـ لم يعد هناك مجال للارتجال في مصائر الشعوب، ولم يعد من الممكن أن تعيش الشعوب بعيدة عن أثر التفاعل المتبادل في الآراء والمعتقدات ، فأي تغيير في اي قطر من الاقطار في العالم له انعكاسه وردود فعله في الاقطار الاخرى .

٢ ـ ان العالم الحالي متحرك بسرعة ، وهو قلق في افكاره وقيمه ، وكثير من المسلمات والعقائد اصبحت اليوم موضع تساؤل عميق ، حتى أن عالمنا الحالي اختصر أبعاد الزمان والمكان ، وحطم كثيرا من الحواجز .

٣ ـ ان كل تحرك في اي قطر من اقطار العالم سيكون له أثره في بقية الاقطار ، وهذا ما يعطي لعصرنا روحا وطابعا جديدين .

٤ ـ وهناك تغيرات قد لا تكون متوقعة حتى الآن ، بالمنطق الثوري التقليدي ، في خريطة التناقضات والصراعات العالمية ـ المادية والعقائدية ـ قد تحققت او في طريقها الى التحقيق ، كالتناقضات والصراعات القائمة بين الدول الامبريالية ، والتناقضات والصراعات القائمة بين الصين والاتحاد السوفييتي .

٥ ـ ان عصرنا هو عصر جتمية ظهور نظرية ثورية جديدة تستوعب منجزات عالمنا المعاصر الذي يعتبر عصر التكنولوجيا الالكترونية والفضائية والذرية ، والذي يعتبر عصر حتمية انتصار الحل الاشتراكي كحل تقدمي انساني جديد .

٦ ـ بروز مظاهر القلق الروحي والتمرد النفسي بين

صفوف الاجيال الصاعدة بصورة تكشف عن الحاجة الانسانية الملحة لاعادة تقييم الانسان لنفسه ومجتمعه ومنطق تاريخه.

وانا لا نوافق المؤلف في كثير من منطلقاته الفكرية التي انطلق منها ، ولكننا نهيب بكل المثقفين والمسؤولين في الوطن العربي الى التأمل في هذا الكتاب وانعام النظر فيه كاسلوب في بناء الحاضر وفق احتمالات المستقبل ، فالحديث عن المستقبل العربي يعني رسم استراتيجية شاملة معتمدة على علم سياسي متطور ، حافلة بالفرضيات . وان اثر الفرضيات التي تعرض لها بوفر في كتابه اثر عميق على بلدان العالم الثالث ، وعلى البلدان العربية بصورة خاصة . فنحن نعيش ازمة خطيرة من جراء الوجود الاسرائيلي ، وقد لا يتسنى للجيل الحالي أن يحسم قضية اسرائيل حسما نهائيا ، الا أن من واجب هذا الجيل ، بل ان المهمة المقدسة للذين تصدوا للقيادة وتحمل المسؤولية أن ينظموا حاضرنا على ضوء متطلبات مستقبلنا والتحديات التي ستواجهه . ولا يكفي أن نعلن اشارة الخطر ، بل لا بد من اتخاذ التدابير العاجلة والآجلة الكفيلة باحتواء الخطر والقضاء عليه . واذا كان بوفر وهو احد اكبر الاستراتيجيين الغربيين في عصرنا الحالي يعتبر بأن وجود اسرائيل سيكون سببا في ولادة دولة عربية كبرى في هذا العالم ، فحري بنا نحن العرب ان نبادر الى بنائها بناء سليما . وحري بنا ان نسارع الى وضع كل فرضيات التغير والتبدل في العالم في حسابنا لنعرف آثارها وانعكاساتها على مستقبلنا وعلى مستقبل قضيتنا ، ولنعد منذ الآن جيلا قادرا على وضع الملامح الاساسية لحركة المستقبل العربي الذي لا يحق لنا ان نرتجل فيه او نغامر .

١٩٧١/١٠/٢٨

المعربان

تحذير

يشكل هذا الكتاب محاولة لاستكشاف مستقبل حضارتنا ولتقدير التحولات الممكنة في عالم هذه الحضارة ، وتوقع الاحداث التي ستحدث نتيجة لذلك . هذا الكتاب اذن ماهو الا محاولة لتطبيق طريقة استقراء التطور الذي تظهر تباشيره . وهي نفس الطريقة التي اتبعتها في كتابي « **بناء المستقبل** » .

فاذا كان هذا الموضوع شيقا الى ابعد الحدود ، فهو في الوقت ذاته وبلا جدال صعب جدا . اذ ينبغي في الوقت نفسه فهم ما يجري وتخيل الصور الممكنة عن المستقبل ، تلك الصور التي ستتحقق واحدة منها . وان عددا كبيرا من صور المستقبل الافتراضية مثيرة للقلق الى حد كبير ، بين تنبؤات نوستراداموس (١) ونهاية العالم . فلنعالج هذه الفرضيات بدون اعاقة باطنية كفرضيات متشائمة لا بد من منع تحقيقها . لان المستقبل في تقدمه الذي لا يقاوم عمل من اعمال الرجال . فهم الذين يعدونه بصورة لا واعية تقريبا ، وتقوم اعمالهم العديدة بنسج مصيرنا بصبر واناة . وتكمن المشكلة الحديثة في وعينا للنتائج الممكنة لاعمالنا ، ومعرفة العمل على المستوى الجماعي بنفس اليقظة العقلانية

---

(١) نوستراداموس : فلكي شهير من القرن السادس عشر ، الف كتابا عن التنبؤات .

(المعربان)

التي نحـاول تطبيقها دومـا على مصائرنا الفردية لتجنب المستقبل المشؤوم .

وليس هذا الكتاب الا مسودة عجلى ، كتبتها وسط احداث جد متحركة . ويشكل محاولة عقلانية ضرورية ولكنها غير كاملة . ويخيل الي رغم ذلك انها محاولة تشكل تقديرا اوليا قد يبدو مفيدا . وهذا ما دفعني الى طباعة هـذه المحـاولة .

طنجة اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٦٨

مقدمة المؤلف

أظهرت الاحداث التي وقعت خلال مايو (ايار) من هذا العام في فرنسا ، والثورة الليبرالية في تشيكوسلوفاكيا التي تعرضت لرد فعل سوفييتي ستاليني سحق التمرد في براغ بقوة السلاح ، كما حدث في بودابست في عام ١٩٥٨ ، وكما حدث في وارسو في عام ١٨٤٨ ، اظهرت كل هذه الاحداث والوقائع أن أوروبا دخلت بدورها في آلام الولادة التي ستتمخض عن العهد الثوري .

وليست هذه الثورة أمرا غير متوقع . فكل ما يجري ينبىء بحدوثها . وقد اعتقد العمي وحدهم بأنه من الممكن أن تتلاءم حضاراتنا مع الشروط الجديدة دون حدوث انقلابات كبرى في مجتمعاتنا . أن الخطورة في هذا الاعتقاد تكمن في أن هذا الاحتمال لم يوح بأي تنبؤ مفيد : فقد بدت فوضى مايو (ايار) في باريس والانفجار التشيكي الذي وقع في شهر مارس (آذار) في براغ ، ورد الفعل العسكري السوفييتي في اغسطس (آب) وتعرضه الى نصف فشل ، بدت كل هذه الاحداث وكأنها مفاجأة للمراقبين . ويبدو اننا كنا نعيش في عالم نقوده يوما بعد يوم دون توقع أو تنبؤ بالمستقبل .

بيد ان التاريخ يعلمنا اننا نتعرض لخطر الوقوع أسرى لمصائر مشؤومة تركنا القدر ينسجها على مزاجه ، اذا لم

نتدخل في الوقت الملائم للحيلولة دون وقوع الاخطار المتراكمة . فانعدام التنبؤات والمبالغة في السلبية تعدنا دائما لفد مليء بالمآسي .

ومن الضروري اذا أن نحسب ، قدر وسعنا ، اتجاه الاحداث التي نعيشها لنحاول استخلاص الاستنتاجات منها حول خط السلوك القادر على تخفيف الآثار السيئة المحتملة لها .

هذا هو الفرض الاساسي لهذا الكتاب .

★★★

تكمن الصعوبة الرئيسية في التقاط اتجاه الاحداث المتطورة في الوقت الحالي . وهناك في الوقت الحاضر مسألتان تتطوران بصورة متوازية وتهددان بالتداخل في بعضهما : المسألة الثورية للعالم الاشتراكي في الشرق الذي تتهدده الليبرالية والماركسية الثورية الصينية في الوقت نفسه . والمسألة الثورية للعالم الرأسمالي الغربي ، الذي تتهدده الفوضى الثورية والماركسية على اختلافها وتبايناتها.

والنضج الثوري في العالم الاشتراكي اكثر تقدما منه في العالم الآخر : فقد عاشت روسيا ثورتها الاشتراكية وصنعتها . وشهدت الاختبارات الكبرى ، ومراحل الحماس الهائلة . والآن تجد هذه الثورة نفسها على عتبة الجزء المنحدر من المنحنى الماركسي . ولهذا بدات العقيدة الماركسية تتفتت وينفض اتباعها من حولها . وفي محاولة يائسة لتأخير اوقات تفتتها الحتمية ، يتصلب موقف الاتحاد السوفييتي في موقف يعيده الى الستالينية ـ الجديدة ، التي تتضمن كثيرا من المخاطر والقيود .

وللحظة من اللحظات بدت الازمة التشيكية قادرة على

التطور بدون مأساة ، اذ أكتفى السوفييت بالتخويف بـدلا من اللجوء الى الافعال . وقد صمموا على الانتقال الىالافعال عندما رأوا ان كل التهديدات التي وجهوها لا جدوى منها ، وان ضعفهم الظاهر تجاه هذه الازمة قد يفقدهم كل هيبـة ونفوذ ، الامر الذي قد يؤدي بسرعة الى انهيـــار جهازهم السياسي كله في أوروبا الوسطى . وهكذا انتصر الاتجـاه الذي ينادي باستخدام القوة . وهذا ما يبرهن على أنالاتحاد السوفييتي ، يواجه الاندفاع الثوري بالعودة الى نوع مـن الستالينية . وكانت هذه العودة احدى الاحتمالات الممكنة ، التي تشكل بالتأكيد علامة هامة . ويرى البعض فيها بعثـا لخطر سوفييتي مماثـــل للخطر الذي سبب انشاء حلف الاطلنطي . ويرى آخرون في هذه العودة الى الستالينيـة دلالة على آخر انتفاضة لنظام سياسي محكوم عليه بالزوال ، آخذين بعين الاعتبار تآكل الايمان الماركسي المتعصب فـي الاتحاد السوفييتي . ويخيل اليأن الفرضيتين لا تتناقضان: فالانظمة السياسية المتآكلة داخليا مضطرة في غالب الاحيان الى ممارسة سياسة خارجية مليئة بالمخاطر .

ولهذا فان الازمة التشيكية خطيرة العواقب بنتائجها . ومن وجهة النظر هذه تغدو أحداث مايو (ايار) في فرنسا ، اذا ما ادى احتمال احداث أوروبا الوسطى الى أزمة أوسـع واشمل ، تغدو هذه الاحداث في مستوى التغير البسيط ، اللامعقول ، الذي لا غد له .

★★★

اما النضج الثوري الغربي فما زال في مرحلة ظهـور الاعراض . وهناك دلائل على ذلـك في كل مكان ، ولكـن « الثورة » الفرنسية التي قامت في مايو (ايار) الماضي

تكشف عن حالة نضج مازالت غير مستقرة .

وقد كتب الكثير عن « ثورة مايو (ايار) » ، وكان ما كتب يتسم بالذكاء والنفاذ والفائدة ، ولكن الى جانب هذا كتبت اشياء مبتذلة ، لا تعدو أن تكون عرضا صوريا للوضع، وكذلك فقد كتبت صيغ فارغة جوفاء على طريقة واسلوب « الخطب » والاحاديث الثورية تتضمن ما يلي : الاعتراض ، والحوار ، والمشاركة ، والاستقلال الذاتي ، جعلت كل « الخطب » والاحاديث التكنوقراطية كالبرمجة ، والتخطيط، والانتاجية ، والانتاج والاستهلاك بالية وعتيقة . وأظهرت عدة ايام اننا نسينا المسألة الحقيقية ، الانسانية اساسا ، لعبادة الرخاء والمال . وفجأة بدا **التحدي الامريكي** ثانويا ومثيرا للسخرية .

واعترفت أذكى الشخصيات بأنها لم تتوقع هذه الازمة ولم تتنبأ بها ، رغم انها كانت ممكنة التوقع ، وتشير اليها كل الدلائل المتعددة . أزمة حضارية خفية ، اعدتها كثيرمن الكتب المدمرة التي ظهرت بصورة أنيقة وبارعة ، وافلام لا إخلاقية تنكر كل القيم ، وصحف تنشر الدعايات والانتقادات غير البناءة . وقد اشارت الكنيسة ذاتها بواسطة المجلس الكنائسي في روما الى أن عالمنا في تبدل وتطور .

ان الشبيبة الفرنسية هي التي اشعلت النار في البارود . وكان بوسعنا أن نعتقد بأن اضراب الطلاب سيقع في مكان آخر غير فرنسا : في بريطانيا ـ العظمى مثلا حيث نجد تفاوتا كبيرا جدا بين العصر والمؤسسات ، او في المانيا التي تركت فيها الزوبعة النازية آثارا عميقة ، او في ايطاليا ، غير المستقرة منذ موت الفاشية ، وفي اسبانيا حيث النظام الديكتاتوري الذي شاخ وهرم ، ورغم ذلك فهو يرين بثقله القوي على صدور الجماهير . فقد انتفضت

شبيبة هذا البلد في بادىء الامر ، ولكنها لم تتمكن من تصديع النظام القائم ، حتى اعتقد البعض بأن الاحداث التي وقعت لا تتعدى حدود الفوضى التي لن تكون لها اية نتائج . وكان من واجب فرنسا أن تعطي لهذه الظاهرة التي كانت تنضج ابعادها الحقيقية ، هذه الظاهرة التي زادت الثورة الجزائرية من تأججها بدون شك . وبالمصادفة التي ولدت الحدث كان هناك التقاء لمجموعة من الشباب المحرضين الذين يعارضون معارضة نفذ صبرها للوصول الى الحكم ، وكانت هناك مطالب اجتماعية متوقعة الى حد كبير ، ويبدو أن العنصر الحاسم في هذه المصادفة كان تردد السلطة في الرد ، بسبب عادة قديمة في التسامح ازاء الحركات التقدمية ، التي كانت متحالفة بعضها مع بعض ابان الازمة الجزائرية. وفجأة اصبح « الفولكلور » تمردا ، واصبح التمرد ثوريا . وقد فهمنا عندئذ احداث عام ١٧٨٩ و ١٨٣٠ ، و ١٨٤٨ وكيف تموت الانظمة . وقد افزع الانهيار الذي بدا في لحظة من اللحظات العالم كله ، حتى انه ارهب الثوريين انفسهم . ولكن التماسك القوي للجنرال ديغول بدد السحب . وخرجت فرنسا من غفوتها ، وانتصبت الى جانب الجنرال . ولم تبق الا اقلية طفيفة موالية للانقلاب والتغيير .

وقضت ضربة ايقاف يونيو (حزيران) على الفوضى ، ولكنها تركت المسائل الجوهرية العديدة التي ظهرت في مايو (ايار) دون ان تجد حلا لها . واليوم نجد في الغرب ازمة الحضارة على جدول أعمال كل الحكومات ، وازمة الدولة ، والازمة الجامعية ، والازمة الاقتصادية ، في حين نجد لاول مرة منذ القرن السادس عشر ، انه لا وجود لاية نظرية شاملة جديدة وجاهزة ، تسمح باعطاء الحلول لهذه الازمات . ويتضح لنا أن الحدث لم يحضر الا بافكار سلبية . وينبغي

علينا الآن ارتجال الافكار الايجابية . ومن المحتمل ان تكون عمليات الجس والاستكشاف حتمية لايجاد صيغ صحيحة. ومرة اخرى اقول ان عصرنا يكشف عن تخلف فكري خطير .

ولهذا فان من واجب كل فرد منا ان يدلي بنتيجة تأملاته وتفكيره وسط الجدل الوطني القائم ، حتى ولو كانت تأملاته غير كاملة ، لكي يساعد على وضع اجابات على أسئلة يطرحها علينا ابو هول عام ١٩٦٨ . وهذا ما احاوله في هذا الكتاب ، آملا أن تكون هذه الافكار القليلة مفيدة للمساهمة في حل أخطر مشكلة طرحت منذ قرون .

★★★

لا يمكن فهم المجرى الكامل لثورة القرن العشرين الكبرى التي نعيشها الا بالتاريخ المقبل . ونظرا لاننا موجودون وسط الحدث ، فليس بوسعنا الا أن نبذل محاولة لفهم تلك الاشياء التي تجري والتي لم تنته بعد ، وان نحسب الامكانات المستقبلية التي ترتسم أمامنا .

فلكي نحل مسألة المستقبل هذه اساسا ، ينبغي تطبيق طريقة قاسية . وقد طبعت في العام الماضي كتابا نظريا صغيرا تحت عنوان : ((**بناء المستقبل**)) يستهدف تحديد طريقة لتنظيم الحاضر على ضوء معطيات المستقبل . وابرزت في هذه الطريقة النظرية التي تقول أن المستقبل مشكل من تضافر نسيج **التطور** ، وهو مجموع الاعمال الفردية التي تشكل نوعا من المصير ، **والاحداث** الطارئة الى حدما والمحتملة والظواهر الجماعية التي تطرز على نسيج التطور لتحرك او تعارض التغيرات المنتظرة ، **والذكاء والارادة البشريين** اللذين يؤثران الى حد ما ، على نسيج التطور وعلى الاحداث . وانطلاقا من هذه الطريقة العامة ، سأحاول تحليل مستقبل التطور الذي يتم امامنا .

وفي الجزء الاول ، سأحاول تحديد **احتمالات التطور الثوري** ، منطلقا من الظاهرة المركزية التي تشكل أزمة حضارتنا ، ثم أحلل سيكولوجيا الاتجاهات الحالية ، واضع جدولا بالحلول التي تبرز امامنا .

وفي الجزء الثاني ، سأحاول اكتشاف **الاحداث** القادرة على صنع التغيرات المطلوبة للتطور ، وحساب آثارها ونتائجها تبعا للفرضيات المختلفة ، وحسب نظام ظهورها.

وفي الجزء الثالث ، سأحاول اكتشاف صور المستقبل التي تبدو أفضل من غيرها بالنسبة الينا ، من بين كل صور المستقبل الممكنة ، لكي اكتشف ، اذا كان هذا ممكنا ، **الاعمال القادرة على معونتنا في تحقيق صور المستقبل المرغوبة والافضل** ، ومنع تجسيد صور المستقبل المشؤومة .

هذا المخطط الطموح جدا – الطموح اكثر مما ينبغي – لن يؤدي بكل اسف الا الى حسابات تقريبية ، غالبا ما تكون معرضة للخطأ ، ولا ينبغي أن يعتبر الا كمحاولة لتطبيق الطريقة العلمية لتنظيم الحاضر على ضوء معطيات المستقبل ، وهي الطريقة التي تساعدنا على كشف مستقبل قريب جدا ، تقلقنا احتمالاته ، وتفتننا في الوقت نفسه ، وعلى وضع خطوط سلوك ، ربما تسمح بممارسة نوع من التأثير على الاحداث الهائلة التي نعاصرها .

الجزء الاول

احتمالات التطور الثوري

الفصل الأول

أزمة الحضارة

ان ازمة الحضارة سواء اكانت تدرجية أم كانت طفرة فانها تعتبر دوما بمثابة انقلاب عميق ينصب على الامور الاساسية والجوهرية ، فيزعزع الايمان بالقيم التي استندت اليها هذه الحضارة . ويعني هذا التحول أو الانقلاب انهيار الاصنام المعبودة ، وتجريح السلطات الشرعية ومؤسساتها ، والطعن فيها ، وولادة آلهة جديدة ومبادىء لتأمين اذعان جديد .

وفي الواقع ، تحدد أنماط القيم السلوك النموذجي والمرغوب ، كما تحدد السلوك السيء والمشين والمحظور. وهذه الانماط هي مجمل الدفوع والمحرمات التي تشكل في المجال النفسي دوافع العمل وكوابحه ، هذا العمل الذي يتوجه بسببها في اتجاه محدد بدقة . وتخلق هيبة هذه القيم وسيطرتها شرعية الاعمال الالزامية وشرعية السلطة ، وذلك عن طريق تعيين النخبة التي ستكون مسؤولة عنها . وتتعلق انماط القيم بصورة واضحة أو مستترة بالفلسفة ، وان أزمة الحضارة تعني تبديلا في الفلسفة السائدة ، أو تبديلا في الدين المعتنق اذا اردنا القاء مزيد من الوضوح . وباختصار فان أزمة الحضارة تعني تبديلا في المفاهيم التي تربط الانسان بغير المدرك .



وقد تطورت هذه المفاهيم بصورة دائمة ، خلال التاريخ في ثلاث مراحل كبرى . ففي باديء الامر اعتقد الانسان البدائي الذي تحاصره الاخطار من كل جانب ، والذي كان يكافح بصعوبة من اجل البقاء على قيد الحياة ، اعتقد هذا الانسان أنه يحمي نفسه بممارسة بعض طقوس الاستعطاف والاسترضاء السحرية ، التي كان يعول على فعاليتها . وكان مصيره مرتبطا بسلسلة من المحرمات كانت اصل القانون . وكان المفهوم الديني يتحكم بالمجتمع كله ، تحت ارادة المرازبة او رجال الاكليروس . أما المجال الدنيوي الملحق به ، فكان مرتبطا بالزعماء الدنيويين ، والملوك ، والديكتاتوريين أو المجالس . وكانت النماذج البشرية المتفوقة لدى الساميين هي نماذج الانبياء والابطال ، وكانت لدى اليونانيين ، هي نماذج الابطال والفلاسفة . وكانت أكبر جريمة ترتكب في ذلك الوقت هي انتهاك الحرمات والمقدسات . وتطورت هذه الحضارة بسرعة ، ووصلت مع روما الى عصر الوفرة ـ على الاقل بالنسبة لغير العبيد ـ في حين كان الايمان الاولي يفتر ويبرد . وكانت العادات المادية غير كافية ، وخلال عدة قرون أخذ العالم القديم يتحسس الارض بحثا عن صوفية كان أفلاطون قد ألمح اليها في باديء الامر ، ثم استشفها من بعده الفيثاغورثيون ، والطوائف اليهودية . وبعد محاولات عقيمة ، حدث التحول الكبير في المسيحية .

وانقلبت المفاهيم في هذه المرحلة الثانية انقلابا شاملا. فلم يعد الهدف بالنسبة للفرد أن يحمي نفسه في الحياة الدنيوية (او ان هذه الحماية أصبحت اقل بكثير مما كانت قبل ذلك) ، بل كان الهدف اعداد الحياة المقبلة على هذه الارض ، وهي الحياة التي ستلي الموت . وكان هذا الفرار من الحاضر متطابقا مع مرحلة المآسي الطويلة التي تلت انهيار

الامبراطورية الرومانية . وبالاضافة الى هذا ، كانت العقيدة تدعو الى المساواة جذريا ، وتتعلق مباشرة بجماهير العبيد الضخمة الموجودة في الامبراطورية الهرمة . وكـان نموذج عقيدة الخلاص هذه ، التي بلغت فيما بعد الحضارتين الهندية والصينية بأشكال مختلفة وبآن واحد تقريبا ، كان النموذج البشري المتفوق فيها هو القديس ، ثم الفارس (١) ، وهما بطلان يخضعان لاخلاق صارمة . وكانت الكنيسة تسيطر على النفوس ، على حين يسيطر خلفاء يوليوس قيصر على الرجال . وكانت الكنيسة ويوليوس قيصر متميزين في الغرب ، اذ ان يوليوس قيصر هو رئيس الكنيسة في الشرق. وانضم البربر الى هذا الدين المنقذ ، الذي كان وسيلة قوية وفعالة من وسائل الحضارة والحكم ، وتتميز فضيلته بالخضوع للعناية الالهية . واستخلصت الطبقات الاجتماعية، التي خرجت من الاعراف والعادات البربرية ، شرعية جديدة دامت طيلة العصور الوسطى الى جانب كنيسة كانت تقترب بازدياد من الطابع الدنيوي .

ثم بدأ هذا النظام المسيحي بالتفكك تحت تأثير العمل المتضافر لحركة البعث الفكرية والفنية ، تلك الحركة التي بدأت تكتشف من جديد القيم التي كانت سائدة قبل المسيحية ، وساعد على هذا التفكك ايضا تطور التجارة الكبيرة الناتجة عن الحركات الملاحية الكبرى ، وتدفق الذهب الامريكي . وقد بدأت تتوالد براعم جديدة : كالتمتع بالحياة

---

(١) Chevalier او مواطن الدرجة الثانية في الامبراطورية الرومانية .

(المعربـان)

وربح المال فوق الاسس المسيحية البحتة . وعملت البورجوازية ، وهي الطبقة الجديدة ، على اسقاط طبقة الفرسان الزراعية التابعة للعصر الاقطاعي ، والدولة ـ الامة ذات الشكل الملكي ، وأقامت شكلا جديدا من السلطة مستندا الى الشرعية القديمة . وعكست الحركة الدينية لعهدالاصلاح التشويش وبلبلة الافكار امام هذه التحولات الثورية . وكانت مدة اعادة التوازن في القرن السابع عشر ـ هذا التوازن الذي كان كاثوليكيا هنا ، وبروتستانتيا هناك ـ قصيرة جدا : وانطلقت الحركة الفكرية لعصر النهضة على ايدي الفلاسفة الذين اكتشفوا أن العقل وسيلة جديدة من وسائل المعرفة . وأدى تقدم العلم ، كما ادى التطور الاجتماعي للبورجوازية المجتاحة الى الازمة الكبرى للثورة الفرنسية التي أعادت النظر في كل النظام القديم ، الديني والعلماني . ولم يعد الهدف أبدا اعداد الحياة المقبلة بعد الموت ، بل تنظيم الحياة الدنيوية على أفضل شكل تحت شعار معبود جديد هو الحرية . وظهرت شرعية جديدة ديموقراطية هي شرعية الاكثرية . واحدثت الاكتشافات العلمية ، بوجود الحرية ، ثورة صناعية واسعة كشفت تجاوزات الحرية واخطاءها بانشاء البروليتاريا . ووضعت العقائد الاشتراكية باسم العدالة ، ثم وضعت العقائد الشيوعية التي ربحت تدريجيا العالم الغربي ، في حين كان التنظيم الرأسمالي الجديد يتطور وينتصر ، وبعد أن خرج من نظرية التجاريين ، اي من « مركانتيلية » الطبقة البورجوازية . وكان بوسع البعض أن يعتقدوا للحظة من اللحظات انهم وصلوا الى تركيب ثابت جديد ، ذي أساس مسيحي ، واقتصاد رأسمالي وحكومات ديموقراطية قومية .

لم يكن ذلك سوى مرحلة من المراحل . فقد دمرت

الحربان العالميتان ، اللتان ولدتا من تجاوزات الحركات القومية وأخطائها ، دمرت هاتان الحربان أوروبا ، ودمرت معها النظام البورجوازي الذي استتب فيها وساد العالم. وأحدثت الحرب العالمية الاولى أول تجسيد للشيوعية في الاتحاد السوفييتي . ووسعت الحرب العالمية الثانية الشيوعية حتى وصلت الى أوروبا الوسطى ، والصين ، في حين كانت الولايات المتحدة تفرز شكلا جديدا من الرأسمالية المستندة الى تقدم التقنية ، وتقيم حضارةالوفرة التي اكتسحت أوروبا بسرعة . واعتمدت هذه الحضارة على التقدم المنهجي للاستهلاك . بيد أن هاتين الصيغتين اللتين قلبتا النظام القديم تبدوان صيغتين مرفوضتين وهرمتين الآن . وهناك تركيب جديد يتحضر ويعد ذاته ، انه مشكلتنا اليوم .

★★★

ولكي نحاول فهم موقفنا الآن من هذا التطور ، ينبغي علينا أولا أن نحلل موضوعيا الحضارات الثلاث التي تنتشر متداخلة في العالم الآن : الحضارة البورجوازية ، وهي الحضارة التي تموت وتشكل أرضية تنمو فوقها عمليات الرفض ، والحضارة الماركسية ـ اللينينية ، وحضارة الاستهلاك اللتان تتنازعان وراثة الحضارة البورجوازية ، ويبدو أن عليهما أن تلدا بزواجهما حضارة جديدة .

وكانت **الحضارة البورجوازية** لمطلع هذا القرن مؤلفة ككل الحضارات من تجمع عناصر العصور المختلفة : زراعة تقليدية ما زالت آثار الاقطاع باقية فيها ، واقتصاد راسمالي على طراز القرن التاسع عشر ، أي اقتصاد رأسمالي حديث، ومؤسسات ذات اتجاه ديموقراطي للقرن الثامن عشر ، ما

زالت متأثرة بالآداب الارستوقراطية ، وبصورة خاصة في خارج فرنسا . وطبقة أنتليجنسيا بورجوازية مادية الى حد كبير لا تؤمن بغير العلم ، وروح قومية جياشة ، وضمير اخلاقي مسيحي ، حتى لدى الملحدين الذين لم تكن مذاهبهم المتقدمة الا دنيوة للمبادىء المسيحية التي تتوجه بازدياد نحو تنظيم الحياة الدنيوية ، مع الاحتفاظ أيضا بمشاغل الحياة المقبلة . ومجتمع متسلسل الى حد كبير تسود فيه عدم المساواة الصارخة ، التي تبرر بمساواة مدنية نظرية أكثر من حقيقية ، وبنوع من الحركية الاجتماعية لصالح العناصر الماهرة والذكية .

وكانت المشكلة الكبرى في هذه الحضارة التي مازالت بعد في مرحلة النقص والعوز هي البقاء على قيد الحياة : وكان الفقراء يحاولون ذلك بواسطة اقتصاد شحيح . أما المغامرون فكانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة بواسطة المضاربة الصناعية والتجارية مع قبول مخاطر الانتحار في حالة الافلاس ، لان حياة البورجوازيين تقوم على ادارة شديدة لعوائد ثرواتهم . وكان للارستوقراطيين والافاقين وحدهم حق تبديد أموالهم ، ذلك الحق الذي كان يقودهم بسرعة الى الخراب ، ولا ينقذهم من ذلك الخراب الا الزواج المحظوظ وهو تبرير مسموح به للزواج غير المتكافىء .

كان المثل الاعلى هو الثروة ، الهائلة والسريعة أحيانا ، ولكن الهيبة الارستوقراطية كانت تعطي للتسلسل الاجتماعي قيمة هائلة أيضا ، وتسمح بتفضيل اوضاع فخرية في يسر كبير ، بفضل المزايا البورجوازية للاقتصاد . وكان الجيش ، وريث طبقة الفروسية ، والمستفيد من القومية الدارجة يتميز بنوع من الفتنة ، فقد كان القائد الحربي ، مع القديس ، ورجال الدولة ، والعالم ، احد النماذج البشرية

السامية . ويلعب الفن الرسمي التافه دورا مسليا لهذا المجتمع الدنيوي الذي كانت تسليته الكبرى هي الفسق والخيانة الزوجية . في حين كان الفنانون الحقيقيون يعيشون على هامش المجتمع ، مجهولين احيانا او ملعونين احيانا اخرى . ولم يكن نموذج « المقاول » البشري المالي والصناعي أو التاجر ، الذي كان ينبغي منطقيا ، ان يحتل المكان الاول ، نظرا لان المال هو الملك ، لم يكن في الحقيقة الا في المقام الثاني مادام التسلسل الاجتماعي مصبوغا بالمبررات الارستوقراطية .

وكما نرى ، لم تكن حضارة مطلع القرن الا صيغة انتقالية بين الحضارة السابقة ، والحضارة التي ينبغي وضعها . وتكمن اصالتها في خصائصها المتميزة الاخيرة : الاقتصاد الليبرالي والراسمالي ، القومية ، تعايش الفكر الحر الماسوني مع ايمان ديني مازال قويا وحادا ، وتعايش ديموقراطية المساواة مع مجتمع مازال التقسيم الطبقي الشديد قائما فيه .

ان **الحضارة الماركسية ـ اللينينية** التيطورهاستالين، والتي تتفتت حاليا في ظل الزعماء الذين ظهروا بعد المرحلة الستالينية هي حضارة حاولت ان تقوم ضاربة عرض الحائط بالماضي منطلقةمن أسس نظرية تماما : ديكتاتورية البروليتاريا، تأميم وسائل الانتاج ، والغاء كل اقتصاد خاص ، وقيادة الدولة للتقدم الاقتصادي بفضل طرق صناعية تسمح بتحقيق وفرة كافية لتوزيع المواد الانتاجية على كل فرد حسب حاجاته . وتتم كل هذه الاجراءات بهدف الوصول الى المجتمع اللاطبقي ، والى الغاء الدولة .

وقد عرف هذا المخطط الترسيمي للحضارةالماركسية ـ اللينينية ، الذي ينبغي أن تتبع كل مبادئه الاولى على

الاقل ، عرف هذا المخطط ، كثيرا من التحولات ، ولكن المهم ، اذا تجاوزنا التاريخ هو ان نفهم روح هذه الحضارة فهما جيدا . فالماركسية ـ اللينينية نظرية فلسفية كاملة وشاملة ، مستندة الى رؤية مادية للمستقبل البشري : فليس هناك في مفهوم هذه النظرية من حقيقة غير الحقائق التي نجدها على الارض ، فالافكار وليدة الوقائع ،والاقتصاد هو العامل الرئيسي للتطور ، وان واجب الانسان ، الذي يرفض كل ايمان ديني ، هو بناء جنتنا الارضية بمنتهى الوعي والجد . وبوسعنا بناء هذه الجنة بفضل تحليل«علمي» للوقائع مستند الى ميكانيكيات المادية التاريخية . وبفضل مبادىء اخلاقية علمانية مستخلصة من التقليد المسيحي ،هذه الحضارة هي في الحقيقة مضادة للمسيحية بصورةجذرية، وهي بمثابة اعلان لقيام عالم ارضي تغيب عنه السماء .

وعلى هذا العالم الارضي ، الذي تحرر الآن من كل خضوع ديني أو آلهي ان ينظم نفسه ويتطور بفضل العلم والتقنية اللذين اثبتا سلطتهما على الطبيعة . ومن هنا تنجم الاهمية المعطاة لتربية الجماهير وللتقدم العلمي .ولكن كل هذا لن يكون ممكنا بدون حصر كل السلطات في الدولة التي تعتبر المالك الوحيد والمقاول الوحيد ، والتي تعمل استنادا الى خطط تحدد الانتاج ، والاسعار والاجور في الوقت ذاته . وتنشط هذا التنظيم الجبار وتحييه ادارة صلبة تنشأ بفضل جهاز الحزب الشيوعي ،الذي يشكل طبقة الفرسان الدينية (الشيوقراطية) ، والتقنية الجديدة التي تؤمن الاشراف على سير النخب الحاكمة وتجنيدها ، بواسطة هرم من مجالس السوفييتات . وليس هناك شرعية الا شرعية الحزب ، الحائز على العقيدة ، كما كانت الشرعية في القرن العاشر ملكا للكنيسة .

ويستبعد هذا المفهوم القطعي أساسا ، كل حرية فكرية على النموذج الغربي الحديث . وتستبعد كل حرية فردية والى حد كبير ، لان المواطن لا يستطيع الا القيام بالمهام التي تكلفه الدولة بها ، لانها هي التي تتولاه وتحمله على عاتقها ، وتربيه ، وتعتني به وتشغله . فاذا لم ينفذ العمل الذي حددته الدولة له يعاقب بتهمة التخريب . ولا يمكن لهذا النظام أن يعمل الا في ظل انضباط صارم ، وهو ماطبق في عهد ستالين . ومن الممكن أن تحدث اخطاء خطيرة اذا تراخى الجهاز البوليسي ، كما هو الحال اليوم ، تحت ضغط افكار ليبرالية . والواقع ، ان العقيدة الشيوعية تنظم نموذجا من المجتمع ينبغي عليه أن يقترب نظريا من مجتمعات الحشرات ، وأن يستند بالتالي الى تكييف تام للفرد لصالح التقدم العام .

وتضم العقيدة الشيوعية الغث والثمين ، ككل نظرية من النظريات . وتمثل الافكار الاجتماعية الكريمة ، والجهد الجماعي بغرض الوصول الى التقدم الانساني ، وخضوع الاقتصاد لخطة شاملة قاسية ، والغاء المصالح الاقتصادية الانانية ، تمثل كل هذه الافكار المكتسبات الصالحة في الشيوعية . وقد ظهر أن انشاء صناعات قوية مؤممة ممكن بفضل رؤوس الاموال التي تراكمت من جراء الوفر الذي فرضته الاجور المنخفضة . وظهر الشيء ذاته بالنسبة للتقدم العلمي . وعلى العكس اتضح ان ارتفاع مستوى الحياة ، برغم الجهود الرائعة المبذولة لم يبلغ النتائج المطلوبة : فالتنظيم جبار جدا ، ولا تسمح ميكانيكيات الخطة باجراء مطابقة جيدة بين الانتاج والاستهلاك . ولم تزدهر الزراعة المؤممة رغم طول المدة التي مضت على تاميمها . ولكن ماهو اخطر بالتاكيد ، ضرورة وجود ارغام حكومي يحل محل القهر

الآلي للاسعار والاجور في اقتصاد السوق . واخيرا ، فان القاعدة الفلسفية للمادية ضيقة جدا بالنسبة لمطالب النفس البشرية . ويرى الاتحاد السوفييتي بعد اربعين عاما من الشيوعية ، وجود مقاومة جذرية لعقائده ، الباطلة بتطرفها. وتسعى الشبيبة اليوم للوصول الى صوفية جديدة ، كما يسعى من هو أكبر منها الى تليين الالزام الحكومي ، بالعودة عند الحاجة الى موازنة الاسعار . وبرهنت التجربة الشيوعية ان بوسع الاقتصاد ان لا يعتمد على الراسمالية وعلى دافع الربح ، وان بوسع الدولة أن تلعب دورا هاما في ادارة الامور البشرية ، وهذا الدور أهم بكثير مما توقعته العقائد الليبرالية . كما برهنت التجربة الشيوعية بأن المشروع الحكومي ناجح ، ولكنها برهنت أيضا على أنه لا يمكن التوفيق بين القهر القائم في الدولة الشيوعية وبين الحرية التي يطمح اليها كل كائن بشري الا بصعوبة .

وقد ظهرت **حضارة الاستهلاك** نتيجة للتطور السرطاني للحضارة البورجوازية في امريكا ، هذا التطور الذي شمل أوروبا الغربية فيما بعد . وقد حدث هذا التطور تحت ضغط افكار ولدت في امريكا في مطلع القرن ، صاغها تايلور وفورد. وقد وضع تايلور اسس عقلنة العمل ، وصاغ فورد مبادىء تطور الانتاج بواسطة تطور الاستهلاك ، بفضل الارباح الطفيفة ، وزيادة الاجور والدعاية . ونجح هذا الخط الفكري الجديد نجاحا لا مثيل له ، واضيف الى التقدم التقني ، والى وضع طرق عقلانية « للادارة » . وتضخمت الصناعة الامريكية بسرعة هائلة كما تضخم الدخل القومي في الوقت ذاته ، بعد ان تخلصت تلك الصناعة من تضخم اعتماداتها بازمة عام ١٩٢٩ ، وبعد أن شبعت برؤوس الاموال من جراء الحرب في أوروبا ، ثم نعمت بالطلبات الكثيرة . وبعد سحر الثنائى

المتكامل أستهلاك ـ انتاج ، ظهر انه بالامكان زيادة الناتج القومي من ٥ الى ١٠٪ كل عام . ونهضت الدول الاوروبية، كما نهضت اليابان بسرعة عجيبة بعد ان دمرتها الحرب وخربتها تماما ، وتم هذا النهوض بشكل مستقل عن مواردها الخاصة . وتحول العالم الغربي بلمحة بصر الى حضارة تتسم بمستويات الحياة المرتفعة ، والمدن التي يعيش فيها بضعة ملايين والسيارة والطائرة ، ويحاول هذا العالم الآن القيام بتحولات جديدة بفضل الاتمتة والطاقة الرخيصة .

ولم يكشف هذا الانتصار التقني المؤكد ، المستند في نهاية الامر الى عقلانية تامة لميكانيكيات الانتاج والتجارة عن ميزات فحسب بل كشف عن سلبيات ايضا : اذ اصبح وضع المستهلك الذي اتخمته المواد الاستهلاكية ، وجرته الى حلقة جهنمية من المصاريف المدفوعة على آجال ، اصبح هذا الوضع نوعا من عبودية الاستهلاك . ويجد الفرد نفسه مضطرا للعمل ، كما يعمل السنجاب عندما يوضع في قفص، لانه ملزم بدفع النفقات المتزايدة . حقا ، انه قادر على الاقتناع بالقليل ، ويكفيه انه يجد الراحة بدلا من الهموم ، ولكن الاعداد النفسي للدعاية ، الذي خلق نوعا من الامتثالية الضيقة ، يضطره الى احترام المعايير الدارجة في تجهيز منزله ، وشراء بزته ، وقضاء اوقات فراغه . وهكذا نجد انه قد تخلى عن حريته الى حد كبير ، وسط هذا الجو الثقيل .

وقد ظهر محذور آخر ، ربما كان اخطر المحاذير وهو : ان فن الاعلام الذي تلعب فيه الدعاية دورا اساسيا وسائدا يضطر القائمين على الاعلام والدعاية الى التوجه نحو أوسع قدر ممكن من الجماهير . ولتحقيق هذا الغرض ، اصبح تبديل البضائع ذات النوع المتاز بالبضائع المثيرة او بالاشياء

التافهةأيضا عملية رابحة : الرباط المحلي بالرسوم ، واستثمار الجنس والعنف ، وقصة « الابله » . وتوصلوا بهذا الشكل الى ادب جماهيري مصمم للارقاء : وكان نجاح « صحافة القلب » (١) في فرنسا أصدق مثل على هذا . فقد قال مدير صحيفة امريكية لمحرريه : « لا تنسوا أن لقرائكم عمرا عقليا لا يتجاوز ١٢ عاما . » والواقع ، أن هذا الاعلام ، الذي تساعده السينما والتلفاز يربي في الناس نوعا من الطفالة ، وصلت الى أكثر الطبقات تطورا في المجتمع ، وفي أوساط الشباب على الاقل ، وأحدثت انحسارا فكريا حقيقيا . وامتد **اسلوب الحياة الامريكية** ، بفضل وسائل نشره القوية ، المدعومة بنفسية ابتدائية فعالة جدا ، امتد هذا الاسلوب بسرعة حتى شمل كل الكرة الارضية ، فأشاع بذور العنف والجنس المغطاة بطفالة ملائكية في كل مكان (افلام طرزان وقصصه) ، ولقد نفذ هذا الاسلوب بسرعة بواسطة دعاية لا اخلاقية بدائية ، ولكنها سيئة جدا .

ولا تستطيع النخبة الامريكية المثقفة التي صدمتها مبادىء النزعة المتزمتة ، الا ان ترفض الالزامات المفرطة لهذا المجتمع ، وافتقاره الى روح انسانية حقيقية . وقد ارتمى الرافضون للمجتمع الامريكي الجديد ، بدون روية ، في تعاطي المخدرات ، وفي اللواطة ، وفي التسول «هيبيز» وفي رقض كل « محترمية » بعد أن رفضوا كل المبادىء

---

(١) Presse Du Coeur : « صحافة القلب » وهي الصحف والمجلات التي تتحدث عن قصص الحب بشكل سطحي وردي لا يصلح الا للمراهقين والبسطاء

(المعربان)

التقليدية واكتشفوا سحر الجنس ، الجديد بالنسبة اليهم ، لانهم يعيشون في بلد مترامي الابعاد ، يشيع فيه البؤس ، حتى انهم اندفعوا الى العنف الاجرامي (حادثة West Side Story) وانتشرت هذه الاتجاهات المدمرة في الارض كلها ، كتعويض عن العقد الناجمة عن الانظمة القديمة. وقد انتشرت هذه الاتجاهات بواسطة الكتاب ، والمسرح ، والسينما ، حاملة معها بذور التفكك في مجتمعات كان من الممكن أن يحميها استقرارها .

ثم اكتشف اللا ملتزمون الامريكيون « السياسة » والظلم الذي يتعرض له الزنوج في الولايات المتحدة ، والامبريالية الانانية واللاواعية لرجال الاعمال الامريكيين في امريكا اللاتينية ، وسخف الحرب الفيتنامية . وانضموا بالطبع الى فوضوية الكاسترويه والجيفارية ، والى حلم تروتسكي بقيام ثورة عالمية ، ونشروا درجة (مودة) لاقت صدى في أوروبا لدى كل الشبيبة التي طفح الكيل لديها ، والتي تعتبر الفوضى بالنسبة اليها تحررا واستردادا لامتيازاتها .

وليس هذا الرفض العنيف لمكاسب حضارة الاستهلاك (ماركوز) الا عمل أقلية طفيفة ، ولكن عملها الخبيث ، الذي يسرته الطفالة التي حققتها الطبقات الوسطى ، لا يتناسب ابدا مع اهميتها العددية . ها هي أمريكا العاملة والمتزمتة، والفعالة ، التي يعتبر « الاداري » فيها و « العلمي » النموذج البشري ، وتؤمن بالتقنية ايمانها بدين من الاديان ، كما ان تدينها المفرط قطعي اكثر منه صوفي ، وتفرز امريكا العاملة هذه بذورا خطيرة للتدمير الذاتي ، تحت علامة فوضوية فكرية بدائية في الغالب لكنها دقيقة بشكل

شيطاني . ان الدودة موجودة في الثمرة ، الامر الذي يجعل من المعارضين لحضارة الاستهلاك حلفاء واقعيين للشيوعية الثورية على الطريقة الصينية .

★★★

ان مقارنة الحضارات الثلاث التي حللناها توحي بعدد من التأملات . وتمثل كل حضارة مادية منها محاولة لبناء « الجنة الارضية » . فالراسمالية تحاول بناء هذه الجنة بحرية المشروعات ، في حين تحاول الشيوعية بناءها بواسطة اوليغارشية تعتقد انها معصومة عن الخطأ ، اما مجتمع الاستهلاك فيتم بناؤه باستخدام عقلاني للتقنية المتقدمة باستمرار . وقد برهنت كل حضارة من هذه الحضارات على وجود مساوىء خطيرة فيها الى جانب ميزاتها الكبرى . وان كل حضارة منها في طريق الانحلال ، وتمثل كل منها ، على ما يبدو ، حلا دفعت مبادؤه الاساسية الى آثاره القصوى ، وهذا التطرف المفروض هو الذي يحكم عليها بالزوال بدون شك .

وقد تطورت راسمالية مطلع القرن الحالي تطورا عميقا ، وتجد نفسها في اوروبا اليوم في وضع معقد ليس فيه أي قاسم مشترك مع الحرية الاولية لاقامة المشروعات . فليس الاقتصاد « حرا » الا في داخل تسوية الاسعار والاجور والاشراف عليهما بصورة وثيقة ، تحت ضغط الظروف ، وضغط الحرب بصورة خاصة ، وعمل النقابات . وفي الحقيقة لا تستطيع اية مؤسسة من المؤسسات ان تلعب الا في القدرة الانتاجية . فهي ترتبط مباشرة ، بالاضافة الى هذا ، بالقروض المصرفية ، التي تقيدها الدولة وتشرف

عليها . وربما كانت هذه الصيغة الهجينة بين الاقتصاد الحر والاقتصاد الموجه ، افضل حل عقلاني .

اما الشيوعية التي ظهرت فيها اتجاهات ضعيفة تدعو الى العودة الى نوع من الليبرالية فتعاني ايضا من صعوبات عضوية كبيرة تتعلق بتلطيف متطلباتها القسرية . فاذا لم تخفف هذه المتطلبات عرضت نفسها للتحطيم على يد الاجيال الشابة الصاعدة .

ومستقبل المجتمع الاستهلاكي الامريكي اقل وضوحا من مستقبل الشيوعية ، لان الصراع بين المدمرين والملتزمين لا يترك مجالا للتنبؤ بأية صيغة بناءة ، كما ان الدفع الذي يحدثه ثنائي الاستهلاك ـ الانتاج يتضمن منطقا داخليا له ديناميكية قوية . فاذا لم يفسح المجتمع الاستهلاكي مكانا اكبر للانسان ، واذا لم ينجح في نشر عقلنة طرق « ادارة » المشروعات في الادارة السياسية للدولة بقوى جديدة ، فانه سيتدمر من الداخل بمعارضة متزايدة مماثلة كثيرا للصوفية ، ولمعارضة الفوضويين المسيحيين للامبراطورية الرومانية المتفسخة .

★★★

وعلى كل حال ، يبدو واضحا كل الوضوح اليوم ان كل هذه الحضارات محكوم عليها بالزوال الى حد ما بعد فترة طويلة من الزمن . ومن المحتمل ان تحقق الحضارة الجديدة التي ستخرج من هذه الازمة تركيبا مؤلفا من العناصر الايجابية التي تتضمنها كل حضارة من الحضارات السابقة . ولكن هذا التركيب سيكون مختلفا باختلاف تطعيمه ، وسيختلف التركيب المطعم على اساس شيوعي عن التركيب المطعم على اساس ليبرالي ، كما سيختلف التركيب المطعم

على اساس مادي عن التركيب المطعم على اساس روحي.

ومن الامور الحيوية ان نحلل الاتجاهات التي تتوضح ، لكن نستطيع استشعار الملامح الرئيسية للنظام الجديد الذي يتحضر . وسيكون هذا الموضوع هو موضوع الفصل الثاني.

الفصل الثاني

النزعات الغريزية

لا يتحكم العقل بسلوك الانسان . ويتجاوب هذا السلوك في الغالب مع اندفاعات عميقة تتهيأ دون علم منه تقريبا . وهذه الاندفاعات أو النزوات هي التي تحقق المناخات النفسية المولدة للحروب والثورات والازمات ، او السلم بالتقائها وترابطها في المجال الجماعي . ويتضمن فن الزعامة استغلال هذه التيارات اكثر من خلقها ، وهو امر يتطلب عملا طويل الامد .

ولكي نحاول ان نفهم بصورة افضل الى اين نسير ، فمن الضروري أن نقوم بالتحليل النفسي للاتجاهات الحالية في الغرب انطلاقا من وجهات نظر مختلفة . وبواسطة تقاطع الملاحظات تنبثق تدريجيا الخصائص المميزة لعمليات النضوج التي يتعرض لها البشر في عصرنا لا شعوريا ، والتحولات العفوية التي ستنتج عنها بالنسبة للحضارة .

★★★

وينبغي أن يستهدف التحليل الاول المجال الذي لعب بالتأكيد الدور المحرك في التحولات ، وهو **اثر العلم على الحضارة .**

وانه لمن الامور المتعارف عليها ان نعترف بان تقدم العلم والانفجار التقني الذي نتج عنه قد قوض الحياة اليومية بوضع وسائل متزايدة في قوتها تحت تصرف الانسان

للتحكم بقوى الطبيعة . فقد توصل الانسان الذي كان سيدا للحيوانات وللزراعة ، الى التحكم بالطاقة . ويسمح له هذا التحكم بالتنقل ، والاتصال ، والتقلب على الاجواء ، وبحيازة ثروات متزايدة . وازداد ترابط الانسان بالانسان ، في حين ضاقت الارض من جراء ذلك الى حد كبير .

وقد دفع الانسان ثمنا لهذا الاكتشاف حياة يومية يزداد طابعها المصطنع ، أي أن حياته اصبحت بعيدة عن التناسقات الطبيعية ، الامر الذي يشكل الحرمان الاول له. ونجم عن ذلك الدعوة التعويضية الى قضاء اوقات الفراغ بتصنع في شروط حياتية بدائية تبدو وكأنها مطلب شرعي فعلا . ومن جهة أخرى يشكل الخضوع للعمل الذهني ،الذي أصبح رتيبا بحكم التخصص والعقلنة الحرمان الثاني الذي لا يمكن تعويضه الا بأوقات فراغ متزايدة . وان الاتجاه الى التمتع بالفراغ ، الذي أصبح ممكنا بفضل فعالية طرق العمل ، عامل مسيطر على النفسية الحالية .

وقد برهن تقدم العلم ، بنفس التسلسل الفكري ،على أن الامر « الطبيعي » يتجاوب مع معطيات يمكن التفكير فيها وقابلة للحساب (زرع الاعضاء ، الملاحة في الفضاء ، تركيب المادة ، الآليات الكيميائية للوراثة الخ ....) . وقد اصبح واضحا بعد الآن انه ليس هناك من **شيء خارق للطبيعة في الطبيعة** وليس هذا التحقق في الواقع الا قضية بينة وواضحة ، ولكنه يمكن أن يولد الاحساس بأن اللغز ليس سوى الشيء الذي لم يتم اكتشافه بعد .

بيد أن طبيعة الاشياء تتبدى معقدة تمام التعقيد . فقد انتقلنا من الميكانيك الى الفيزياء ، ثم انتقلنا الى الايلكترونات والى الكيمياء . ورغم هذا يبقى الانسان الذي تتزايد معرفة العلماء في اصلاح قصوره الجسمي ، يبقى

الانسان « ذلك المجهول » الذي حاول كاريل محاصرته. فما زال علم النفس ، بالرغم من بعض الانجازات العملية التي حققها ، يتلمس طريقه . اما « العلوم البشرية » فانها لم تتقدم ، وهي تتحرى بعض آليات اللاشعور كما استطاع ان يكشفها على ما يبدو تطور الكلام ، بعد المحاولات غير المجدية للطرق الكمية التابعة للمدرسة الامريكية .

وفي الحقيقة ، يتضح تدريجيا انه اذا لم يكن هناك شيء خارق في الطبيعة ، **فان لنظام الطبيعة كما يبدو غرضا ما من** طبيعة خارقة . ومن هنا يبدو احتمال تقويض الاتجاهات المادية للفكر العلمي ، الذي بدأ مجاله ، المتسع باستمرار ، يحس بحدوده .

★★★

وهناك تحليل ثان يفرض نفسه على تطور الجماهير الحديثة ازاء الحضارة الغربية .

فالوفرة التي ظهرت في كل مظاهر الحياة الاقتصادية، والتي كان الجميع يركضون لتحقيقها ، كالارض الموعودة ، لا تبدو انها اقنعت الفرد بعدم البحث عن مزيد من السعادة. فالانسان يعتاد بسرعة على المزايا التي حصل عليها : فبعد شعور بالغبطة والنشاط يدوم لفترة قصيرة ، يحس الانسان بأن السعادة بالنسبة اليه تشكل **هما** متزايدا نظرا لعدم وجود تكيف ملائم مع البيئة الطبيعية ، وهو ما اشرنا اليه فيما سبق . فالسيارة ، واوقات الفراغ، والرحلات والاسفار والمغامرات التافهة لا تكفي لاشباع رغباته . فهو يحتاج دوما الى المزيد منها او الى اي شيء آخر . ولكن ماهو هذا الشيء ؟

ومن الواجب ان نضيف بان الحياة اليومية اصبحت

لا تطاق في المدن التي يسكنها الملايين من السكان ، وفي التجمعات السكانية الحديثة . اذ يدفع المرء ثمنا باهظا لهذه الحياة هو الارهاق والاعياء الى جانب العزلة ، والهواء الملوث . وتتطلب مثل هذه الحياة التعويض عنها بالفرار الى الشواطىء او الريف ، علما بأن هذه الاماكن اصبحت مزدحمة بالناس أيضا . فانعدام حياة مشتركة ، خارج الاطار الضيق للعائلة ، التي تتصارع فيها الأجيال أيضا يؤدي الى هزال الشخصية ، والى روح انانية شرسة وفظة في بعض الأحيان، أو الى الاعتياد على تسليات تافهة وسلبية بصورة عامة كالتلفاز أو الصحافة المصورة التي تلعب دور المخدرات ، والهروب من الافق المباشر .

وتتميز وسائل النشر الحديثة بأنها وسائل « مكيفة » اساسا ، وتنتج عقليات تافهة وعلى نموذج واحد . حتى ان الاعلام عندما يكون من نوعية ممتازة ــ ونادرا ما يكون كذلك، ولكن من الممكن تطويره ــ حتى هذا الاعلام الممتاز فانه يدفع الى تلقي المعلومات اكثر من المشاركة في الحدث . واذا كان المستوى الاساسي للجماهير يتجه الى الارتفاع من الناحية الفكرية ، فان المستوى المتوسط ، يبقى منخفضا نظرا لعدم وجود جهد شخصي . ويبقى الابداع استثنائيا وخاصا بالنخبة القليلة فقط .

ويؤدي تقدم العلم ، التقدم المعروف ولكنه غير المتمثل، الى نوع من الفوضى الفكرية بسبب ضياع اليقينيات الاخلاقية والسياسية التي بنيت عليها الشرعيات المعترف بها حتى الآن بصورة عفوية . وينتج عن ذلك في غالب الاحيان نوع من السلبية ازاء المصالح الجماعية واتجاه الى اللا اخلاقية. وهناك ايضا نوع من الاستعداد لتقبل أفكار جديدة قادرة على السماح بحدوث تطورات سريعة وجذرية .

★★★

وتبدو هذه الاتجاهات لدى الجماهير الحديثة بصورة اوضح في موقفها **من الدين** .

فقد شهدنا في هذا المجال ظاهرة فيها كثير من المعاني: راى القرن الثامن عشر تخليا عن المسيحية من قبل الاوساط المثقفة الارستوقراطية ، ثم تبني هذه الاوساط للمسيحية من جديد في القرن التاسع عشر ، في حين كانت البورجوازية تتخلى عن دينها . وفي القرن العشرين نرى ان البورجوازية تعود فتتمسك بدينها المسيحي ، في حين يتخلى الشعب عن المسيحية . ويحدث كل هذا كما لو ان على كل مستوى اجتماعي أن يمر بالتتابع بأزمة من المادية يتبعها عودة الى الايمان بالدين ولكن في شكل جديد . وستكون هذه الازمة أزمة تلاؤم الحس الديني الموافقة للوقت الذي تبلغ فيه الافكار الجديدة وجد ان الطبقات الاجتماعية المتابعة. وقد نجد انفسنا في النقطة الحرجة لهذا التطور .

ويبدو على كل حال ، ان اللاشعور الانساني مازال يحتاج الى دين يرتبط بغير المدرك : تكاثر الطوائف الباروكية، تطور الايمان بعلم التنجيم مثلا ... كل هذا يظهر أن لدى الانسان معتقدات لا عقلانية ضرورية بالنسبة اليه .

ذلك لان الانسان ، المطمئن الى الطبيعة التي يتحكم بها ، ما زال يحتاج الى الامان من الصدفة التي يحس بأنه خاضع لها ، ويحتاج الى العون في المصاعب التي قد يصادفها . وتتجه نزعته الدينية الى الابتعاد عن اهوال النظريات القديمة المتعلقة بنشأة الكون ، وترفض القلق الاضافي التي تسببها هذه النظريات له . وكل ما يفتش عنه هو ضمان مهدىء ، في نظام اخلاقي اقل تشددا قدر الامكان . لان اتجاهه الحالي يناقض كل رواقية ، وكل اخلاق نظرية . وبقدر ما يمارس مثالية واعية ، فانه يجتهد

ان لا تؤدي هذه المثالية الى خلق « قديسين » ، ولكن مثله الاعلى الغريزي يتجه الى نموذج للانسان الشريف ، المتسامح ، الكريم ، الطوباوي .

★★★

ونجد كل هذه الاتجاهات المتباينة في ازمة **الكاثوليكية** التي لاتبدو شيئا آخر سوى النزاع بين المذهب الاستبدادي والافكار الجديدة الناجمة عن التطور المادي والاجتماعي .

ويتراكم الشك ورفض الاخلاق التقليدية ، في مواجهة العقيدة التي دامت آلاف السنين : التسامح الجنسي ، زواج الكهنة ، تنظيم النسل ، تخفيف سلطة الآباء والزعماء ، تقليل العقوبات الخ .... وتعطي بعض الاوضاع الموضوعية كالتضخم السكاني ، لهذه الاندفاعة ، قوة لا جدال فيها .

وعلى مستوى العقيدة ، لا يمكن الا ان نلاحظ الاتجاه الحالي : لا يتحكم بالحياة البشرية اليوم هم الحياة الابدية ، وانما تتحكم فيها الرغبة بمشاركة اكبر في تنظيم الجنة الارضية . وهكذا يحاول رجال هذا العصر عقد زواج جديد بين الصوفية والمادية . وتسعى الكنيسة في تأثيرها على الجماهير الى بناء نوع من **الملائكية الارضية** ، على عكس المفهوم الواقعي (والتشاؤمي) للانسان الذي كان يسود في السابق . وبالتوازي مع كل هذا ، فقد المذهب شدته ، وذاب الجحيم ، وأعيد النظر في سحر الطقوس كلها . وتثير السلطة ، التي هي اساس الكنيسة التقليدية الحذر وتتجه الى التوطد والاستقرار تحت شكل جماعي ، اوسع مايمكن .

وبناء على هذا تسير الكنيسة في عمل دنيوي ، انساني وسلمي ، ومضاد للقومية بعمق ، في حملة صليبية مضادة للتعصب العنصري ، وفي اتجاهات كنسية ، ومتآلفة بعضها

مع بعض ، رغم الصعوبات التي يثيرها المذهب في هذا العمل . وتمارس الكنيسة بهذا الشكل دفعا متفجرا وتقدميا فيه بعض التماثل مع دفع المسيحيين الاوائل ، في الامبراطورية الرومانية المنتهية .

ويمكن القول ، الى حد ما أن التطور الحالي يدير الظهر للتقاليد « الرومانية » المتشددة التابعة للكنيسة الكاثوليكية، وان هذا التطور يعتقد بأنه وجد شبابا جديدا في التقاليد المنبثقة مباشرة عن الانجيل الذي تتطابق تعاليمه بصورة أفضل مع المثالية الاجتماعية التي تبدو بالنسبة للتطورالآن أساس مهمته .

واذا كانت الكنيسة الى حد ما في طليعة الاهتمامات الغريزية التي تبرز اليوم ، فان بوسعنا القول أن الادب لا يعبر بصورة عامة عن هذه الاهتمامات الا بتأخر كبير .

وقد عشنا بعد الحرب العالمية الاولى فترة طويلة كانت البورجوازية المنهارة تسود فيها ، منتجة أدبا مبهما « غير ملتزم » بعد مرحلة طويلة كان يسود فيها فكر بورجوازي ذو ذوق متحذلق تافه ، ولكن تغذيه ثقافة تقليدية . وبعد الحرب العالمية الثانية ساد المدمرون اليائسون (الذين يجسدهم سارتر) ، ثم تفتحت « السنوبية » الماركسية ، التي سبقتها لفترة طويلة «الموجة » الفلسفية للتصنع السكولاستيكي في المدرسة الالمانية . ومنذ وقت قصير ، رأينا ولادة « سنوبية » جديدة وهي « سنوبية » العقائد العدمية التي ترفض حضارة الاستهلاك ، في نفس الوقت الذي كانت تتطور فيه الدناءة اللا اخلاقية الجنسيةوالعنيفة في الادب وفي افلام التسلية التي تلعب في عالمنا الحالي دور ميادين الالعاب في روما القديمة .

ان كل هذه المراحل لا تمثل بصورة عامة الا دافعا

فكريا رقيقا في القالب ، ولكنه لا يتمتع بقدرة خلاقة كبرى. وفي الواقع ، ان الادب يتبع التطور ببطء ، وهذا البطء هو سبب تخلفه الفكري الرهيب عن العلم والحضارة ، هذا التخلف الذي يعاني منه عصرنا . فلم تعوض ابدا سنوات الادب غير الملتزم . وكان هذا ما سمي حقا « خيانة الادباء ».

★★★

وعانى تطور الفن اتجاهات مدمرة مماثلة ، وأشار بهذا الشكل وبكل وضوح الى طابع « نهاية الحضارة » في عهدنا .

فبعد ان دمر الفن الفنون التقليدية الجميلة ،كانعكاس صحيح بدون شك ، ورفض « الجميل » و « الاسلوب الفخم » الرمزي ، اندفع الفن كالادب وكالعلم في **سبر اللاشعور .**

وقد قام بهذا العمل اولا محررا الفنان مزيدا من التحرر من طغيان النموذج والمؤلفات المبتذلة ، وسمح له بهذا الشكل بالتعبير عن تحليلاته وانعكاساته العفوية بصورة اشمل . وقد أحدث هذا التحرر في فن التصوير الزيتي وفي الموسيقى ازهار تحف فنية . في حين كان فن النحت على العكس ينحط ويهبط .

ودخل الفن في مرحلة البحث المنهجي التي قادت التصوير الزيتي الى الفن المجرد ، كما قادت الموسيقى الى استثمار الصخب والسلم الموسيقي ذي الكتابة الحديثة . بعد أن اندفع درجة الى الامام مع المدرسة الهندسية الحديثة والدادية (١) والسريالية . وقد انتهت عملية البحث ،وسط

---

(١) **الدادية** ـ مذهب في الفن والادب انتشر في سويسرا وفرنسا =

لقاءات مهمة ولكنها محدودة ، والتي قادها وسط فني اعتمد في غالب الاحيان على تأمل باطني قام به الفنانون وهم يتناولون المشروبات الروحية أو يتعاطون المخدرات ، وبصورة خاصة في امريكا ، على طفولة فكرية تغذيها « السنوبية » . وقد توصلوا بالتعبير احيانا عن يأس ما بعد الحرب ، كبوُس بوفيه ، الى العاب لا بعد لها كالتاشية ، والحرفية (١) و « التصوير الزيتي » الذي يجمع اشياء مادية مضحكة . وكان هذا هو نهاية التطور .

ونعاصر اليوم عودة الى الرسم ، الامر الذي يعلن نهاية الازمة . لان من الممكن أن نلاحظ ان التصوير الزيتي كان دوما في طليعة التطور وان الموسيقى لم تلحق به الا مع بعض التأخر .

ومن كل هذا البحث الذي يبدو بحثا لا جدوى منه، ولكنه خصب في الحقيقة ، برزت بوضوح فكرة ان الفن ليس تجسيدا ، وانما هو تعبير عن روح الفنان ، وان الفنان يلعب بهذا دور الكاشف لروح عصره . وتبرز تركيبات تاريخ الفن الكبرى ، كالمتحف الوهمي لمالرو . ان الفن وهو لغة الروح ، يترجم بصورة عفوية كل المشاغل والاهتمامات ، من اكثرها سموا الى اكثرها مادية في كل حضارة .

ومن وجهة النظر هذه ، فان مصير « اجتيازالصحراء»

= حوالي ١٩١٦ – ١٩٢٠ وتميز بالتأكيد على حرية الشكل تخلصا من القيود التقليدية .

(١) **الحرفية** : نظرية فنية وأدبية تحصر الشعر والجمال في موسيقى الحروف او ترتيبها بشكل خاص .

الذي تلى الانفجار الفني الرائع للانطباعيين والمتوحشين (١) يحدد التشويش الهائل الذي تعاني منه حضارتنا في الوقت الحاضر وينبىء بنهايتها المقبلة .

★★★

وتتأكد هذه النهاية بالظهور التدرجي لحركة رفض الحضارة الحالية ، هذه الحركة التي ما زال اتباعها اقلية ولكنها حركة قوية جدا .

وتتسم هذه الحركة بسمة فوضوية عميقة ، ترفض التسلسل الاداري . وهي حركة لا اجتماعية في معنى ما ، وفوضوية ، وصبيانية عموما بازدرائها للقضايا المادية . وتريد هذه الحركة ان تكون رفضا للرخاء ، وللاقرباء ، وللمعلمين ، وللنظام ، وأن تكون رفضا لتيمية الاكثرية ، وتعلن عن تحولات سياسية لم يتضح بعد معناها البناء . وهي من الناحية السياسية أزمة تخريب ليست بعيدة الشبه بالازمة التي يجتازها الفن .

وتبدو اعادة النظر هذه في الحضارة الحالية ناجمة أولا عن رد فعل عفوي للشبيبة أزاء الاشباع المختلف الذي فرض عليها : الاشباع في النفقات ، والتقنية ، والاشباع في التنظيم داخل بنيات جامدة ، الاشباع في الاموال التي

---

(١) المتوحشون Les Fauves : لقب اعطى لاعضاء مدرسة الرسم التوحشية الفرنسية حوالي عام ١٩٠٠ - وتتميزبالالوان الصارخة والخطوط السوداء ، والجرأة في التحرر من القيود التقليدية .

(المعربـان)

انست بسرعة ردود الفعل الابدية للعوز . وقد لاحظت هذه الشبيبة الموضوعة قبالة هذا العالم ، الذي يبدو معاديا لها والذي ليس الا عالما لا انسانيا ، لاحظت هذه الشبيبة تخلف الفكر الحديث الذي لا يقدم لها الحلول التي تتحرى عنها غريزيا . وهكذا اضطرت الى انكار المبادىء التي علموها اياها بصورة سطحية ، تلك المبادىء التي كانوا يضيفون اليها الى حد ما وبصورة مقصودة واعية البذور المدمرة للادب البورجوازي المنهار والماركسية - الجديدة للانتليجنسيا الجامعية ، نظرا لعدم وجود هدف واضح محدد ومقبول ، ولانعدام وجود القيادة والمثل الاعلى . وقد برهن اكتشاف الشذوذ الضال لنظام القيم السائد في مجتمع الوفرة هذا ، حيث يتقاضى النجم السينمائي أو مغنى اليي يي(١) اكثر مما يتقاضى الوزير ، برهن كل هذا للشبيبة على سخف هذا النموذج من الحضارة .

وبصورة مباشرة أكثر ، أدى الجهد المتفاوت المطلوب من الطلبة بنظام تعليم متحجر ، وامتحانات خطرة وجبارة ، والتي لا ينفذ الشاب منها في الغالب على مهنة سياسية ، أدى كل هذا الى رفض عنيف عام تقريبا لدى الشبيبة الاوروبية . الا أن هذه الشبيبة تجد نفسها بصورة غريبة خاضعة وحدها الى النظام القاسي في معركة الحياة ، في عالم من الراشدين يتجه الى الحياة أكثر فأكثر في مناخ مطمئن يغلب عليه الطابع الاشتراكي . وكان « الاختراع »

---

(١) Yé-Yé اسم اطلق على الشبيبة الشاذة والصاخبة حوالي عام ١٩٦٤ وما بعدها .

(المعربان)

الرائع لماوتسي ـ تونغ عندما استعان بالقوة المتفجرة للشبيبة المثقفة ليحرك التبدلات الضرورية في المجتمع . **فتمرد الشبيبة هو في الواقع تمرد آخر « البروليتاريين »** . وكان نقد هذه الشبيبة للمجتمع الفوضوي والساذج في الغالب بعيدا عن أن يكون سخيفا . ولكن نظرا لعدم وجود فكر موضوع سابقا ، فان هذه الشبيبة لا تنفذ من هذا الوضع الا على تقليد لثورات عالم الفقر والعوز ، الذي يغذونه بشعارات بدائية ، ذات شأن احيانا . ولكن لرفضها العنيف المبرر في الغالب ميزة القاء الاضواء على حدة الازمة التي نعانيها وضرورة القيام باصلاحات جريئة اذا اردنا تجنب المرور بالسياق الطويل المدمر للثورات .

★★★

وقد انتصب عفويا في وجه صعود قوي التبديل ، **رد محافظ قوي** . وقد لوحظ هذا الرد أيضا في المانيا وفرنسا ،كما لوحظ في الولايات المتحدة الامريكية وفي الاتحاد السوفييتي ، وبخاصة اثر الاحداث التي وقعت في تشيكوسلوفاكيا . وكان هبة غريزية عموما ضد الفوضى ، وضد التطرف المشخص بالسلوك الوجودي الامريكي . وان جدة رد الفعل هذا في الغرب ، الذي يختلف عن الحركات المحافظة التقليدية وعن الستالينية الجديدة السوفييتية ، هو في انه لم يكن مضادا للتقدمية وفي قبوله لشرعية الاصلاحات العميقة . ولكن الذي نخشاه هو أن تكون اصلاحية الغرب ذات نفس قصير نظرا للافتقار ، مرة اخرى ايضا ، الى افكار جديدة متلائمة جيدا مع الوضع ، وهو نتيجة التخلف الفكري الذي يميز عصرنا .

وأمام الاخطار المهددة ، نرى أن الرجعية المحافظة قلقة ويستهويها في الوقت ذاته العودة الى نوع من الفاشية للدفاع عن نفسها . وتتعلق هذه الرجعية ، غريزيا بالطرق السياسية القديمة ، وهناك محاولة للعودة الى الماركسية العقائدية في الاتحاد السوفييتي ، واستثمار للميكانيكيات الديموقراطية وخاصة في فرنسا والولايات المتحدة .

ورغم هذا لا يبدو ان الرجعية المحافظة ، التي تشكل أكثرية واسعة قادرة على اعاقة حركة قوى التغيير ، الا اذا عرفت كيف تكتشف الحلول التي تتضمنها الازمة ، وضمنت في الوقت ذاته تضامن الجماهير العمالية معها . فاذاتحالفت هذه الجماهير العمالية ، ضد مصلحتها بالطبع ، مع الفوضى دخلنا في فترة ثوريةحتمية . ومن هذه الزاوية فان الشيوعية البنيوية والرأسمالية المطبوعة بالطابع الاشتراكي ستكون في وضع غريب يجعل منهما حليفين بحكم الامر الواقع ، أو على الاقل متضامنين الى حد بعيد على الاقل ، رغم تناقضاتها الاساسية . فاذا تنازل احد النظامين امام الدفع الثوري ، فان هناك خوفا من أن يتأثر النظام الاخر بشكل عميق من هذا التنازل . ويؤدي هذا التضامن الى نتائج هامة سنفحصها في الجزء الثاني الذي يعالج الابعاد .

الاستنتاجات

تظهر مختلف الاتجاهات التي تكشفها هذه التحليلات بوضوح كبير معنى الازمة التي نجتازها .

ومما لا شك فيه انها لأزمة تكيف ، ولكنها ازمة يتحكم فيها بصورة واعية الى حد ما في الغرب التخلي الجزئي عن الهدف التقليدي والخاص بالحضارة المسيحية للقرون

الوسطى ، المركز على الحياة المقبلة ، لقبول ضرورة بذل جهد عقلاني ، لاجهد غريزي فقط بغرض تنظيم الحياة الدنيوية . وهي في الحقيقة محاولة تركيب بين الروحانية القديمة ومادية القرن التاسع عشر .

ومن هنا **ينتج تعريف جديد لاهداف العمل البشري** ، يجمع في تصور التقدم البشري الاهتمامات الدنيوية واهتمامات ماوراء الطبيعة . ومن هنا ينجم البحث عن **اخلاق جديدة** تؤكد على الوصول الى مستوى الكمال ، وعلى التضامن الانساني ، أكثر من تأكيدها على الجزاء . ومن هنا ينجم البحث عن **بنيات جديدة** متلائمة ومتجانسة بصورة افضل . كما تتأكد ايضا ضرورة توجيه فكري وفني جديد لمعاونة الذكاء والحساسية بصورة أفضل مع التقدم المطلوب .

وستكون هذه التحولات التي تدل على نفسها صعبة من دون شك . وسنحاول إكتشافها في الفصل الثاني . ولكن من الواضح انها ستحدث طبقا لاساليب وطرق ستتأثر الى حد كبير بالالتقاءات التي ستتصدر ولادتها . وقد تجسدت الماركسية التي كانت عقيدة شاملة بالوقائع بواسطة الليتينية أولا ، والستالينية بعد ذلك ، المختلفتين اختلافا عميقا عن المادية التي جاءت بعدهما ، وعن الماركسية التي كانت الاصل . وستتأثر الاصلاحات التي تنعم التفكير فيها ، والتي ليست في غالب الاحيان موضوعا لاية نظرية جديدة ، ستتأثر كثيرا أيضا بشخصية الرجال المدعوين لتحريكها وذكائهم .

ويعود الابداع في الحركات العفوية للاندفاعات البشرية ، المولدة حقا للاحداث ، يعود هذا الابداع الى الرجال العمليين الذين يكتشفونها ويعرفون ايجاد الصيغ الملائمة مؤقتا .

الفصل الثالث

البحث عن الحلول الممكنة

بالرغم من عدم وجود أية نظرية جديدة شاملة نرى في اتجاه الميول الفريزية التي أتينا على تحليلها ظهور مجموعة من الحلول الممكنة . ومن الواجب علينا قبل أن نتحرى عنها أن نلاحظ بأنه من الممكن ان تتبدل هذه الحلول في كل ميدان بين أكثر الصيغ تجديدا واكثر الاصلاحات اغراقا في روحها المحافظة . ونلاحظ بأن فعالية هذه الحلول تكمن في قيمة التسوية التي تحققت بين ما نرغب في انجازه وبين ما هو ممكن بالفعل ، وبين مطالب التغيير التي اعتبرت ضرورية ، وما تسمح بقبوله حالة الرأي العام والظروف العامة .

ولا مجال في هذه المرحلة من عملية التحري التي نقوم بها للبحث عن تحديد ماذا سيكون أو ماذا ينبغي أن يكون ، بل ان نتحرى جدول الامكانات التي نستطيع أن نحس بها .

★★★

وفي **مجال المفاهيم الاساسية** ، راينا فيما سبق ان المسألة تكمن في تسوية ينبغي تحديدها بين الروحانية التقليدية ومادية القرن التاسع عشر .

وفي أحد الطرفين هناك الماركسية المغرقة في المادية والرافضة مبدأ روحي ، التي توصلت بواسطة مفكريها

الى تصور انساني يؤكد بأن الفكر هو الذي ينتج المادة ، ويلعب الى حد ما دورا رفيع الشأن . وفي الطرف الاخر نجد المسيحيين ، وهم بوضوح اتباع حركة « موت الله » الذين يتجهون الى الابتعاد عن مفاهيم ما وراء الطبيعة لكي ينقلوا كل السمو ورفعة الشأن الى التضامن الانساني . وتتجه هاتان الحركتان ، بدءا من مفاهيم متعارضة جذريا الى الالتقاء .

ومن الممكن أن يتشكل قطب ثالث بتجديد شباب الروحانية المعتمدة على التطورات العلمية الحديثة . فقد ظهر أن المادة ليست الا طاقة . والعالم الحقيقي هو اذن عالم الطاقة الذي لا يشكل الزمان والمكان فيه الا صفتين للطاقة ، هذه الطاقة التي تتحكم بواسطة القصور الحراري في المدة المحددة . وان المدة اللامحدودة هي خارج عالم الطاقة اذن : انها العالم اللازمني الذي يتعايش مع العالم الزمني والذي يؤثر عليه بالخلق الاولى وبوضع القوانين الطبيعية التي تتحكم بالقصدية . وقد احدث المزج بين القصدية والطاقة التطور . وينمو التطور من الحتمية نحو الحرية ، ومن المادة الى الانساني . وبواسطة هذه الحرية يهرب الكائن البشري من القوانين الطبيعية التي يكتشفها تدرجيا ويرتفع في مستوى الذكاء والوعي والروح . وان وظيفته الدنيوية هي التقدم بصورة منسجمة ومتوازنة معتمدا على التقدم المادي ، ولكن في سبيل تقدم الذكاء والروح . ويبرز هذا المفهوم — الذي اتبناه شخصيا (١) — اقدم التقاليد الدينية حسب وجهة نظر حديثة ، مع تقديمه جوابا عند الحاجة

---

(١) والذي شرحته فئ كتابي طبيعة الاشياء .

هو ان لدى الانسان هدفا دنيويا واضحا وأن لديه ايضـــا **ايمانا** بالمجهول مطابقا لمعارفه .

ويتشكل قطب رابع مـن العقيدة التقليدية للكنائـس المسيحية ، الخاضعة لضغوط مؤلمة ، والواقعة بين الـروح المحافظة التي تعرض هذه الكنائس لفقدأن الاتصال بعصرنا، والروح الاصلاحية التي قـد تؤدي الى التفتت الكامـــل للعقيـدة .

ان المادية المطلقة ، المخففة بمزيد من الروح الانسانية، ودنيوة التفوق المسيحي ، والدفاع عن كل مافي العقيـدة الكاثوليكية من امور اساسية ، والاعتراف بعقلانية المجهول الرفيع الشأن ، هذا هو جدول الاشياء الممكنة . وفي هذا المجال ، نجد أن تفوق احد هذه الحلول احتمال ضعيف ، وعلينا أن نتوقع تعايش كل هذه الحلول التي يؤثـر بعضها بالبعض الآخر .

ولكن ما ينتج بالتأكيد عن هذه المقارنة هو المفهوم الاوضح لدور الانسان على الارض وعلاقاته مع المجهول .



وفي مجال الاخـلاق يفرض وجود « اسلوب عصري » ذاته بصورة واضحة بسبب ضرورة وجود معايير جديـدة لحل المسائل التي طرحها تقدم العلم . ومن الطبيعي أن يثير مثل هذا الاسلوب الحديث صعوبات من كل الانواع ، لانـه لا وجود لحل منطقي الا ضمن اطار المفاهيم الاساسية عـن دور الانسان على الارض ، وان هذه المفاهيم مازالت بعيـدة عن أن تؤول الى صيغة مقبولة من الجميع .

١) أن الجمود العقائدي الذي يود البعض الحفـاظ

عليه ، لا يمنع حقيقة اكيدة هي ان التقاليد تتبدل حتى لو لم تتبدل الاخلاق المتشددة : وليس علينا الا ان نرى في هذا الصدد الموقف الجديد ازاء الاطفال الذين تلدهم امهاتهم من غير زواج ، وازاء « الامهات العازبات » . ومن المؤكد ان هذا الفارق بين القاعدة الخلقية والتقاليد امر له خطورته ، نظرا لانه يغري بتجاوز الاخلاق كلها . ويرجع البعض غالبا الى « القانون الطبيعي » ، وتميل هذه العودة الى تجاهل أن القانون الطبيعي بالنسبة للانسان يعني الهروب من الحيوانية ، أي الهروب من قوانين الطبيعة الى حد بعيد . ويحتاج الانسان خلال تقدمه المضاد للطبيعة لقاعدة ما ، والا تعرض للانزلاق في اكثر الاخطاء خطرا . ان علم تحسين النسل ، وقتل المرضى والمشوهين ، وزرع الاعضاء بعد موت صاحبها بصورة كاملة رغم بقاء الاعضاء حية بيولوجيا ، والقنبلة الذرية ، وتنظيم النسل ، وتحديد المناخ ، ومسؤولية رؤساء الحكومة سادة الحرب والسلام الآن حيث تدخل السياسة في المجال العقلاني ، عبارة عن مسائل صعبة يتعذر حلها عن طريق الجمود .

ان كافة الاخلاق ــ ويعلم الله كم هي مختلفة ، وكم تبدلت مع الزمن ــ موضوعة وفق فائدتها ، وتلاؤمها مع الراي العام ، بالاضافة الى التعاليم الالهية . ولا بد من استخدام مقياس الفائدة المرتبط بالاهداف الجوهرية كدليل . فالسيء ، هو ما يبطىء او يعرقل تقدم الانسانية الروحي والثقافي والاخلاقي . والجيد ، هو ما يزيد سرعة هذا التقدم ويدعمه . واستنادا الى هذين المقياسين وعلى ضوء الاهداف المادية والمعنوية الجوهرية ، يمكن للتفكير الدقيق استنتاج قواعد حكيمة ، بالنسبة لكافة المعضلات العملية التي يطرحها التقدم العلمي والتطور البشري . ويتطلب هذا

العمل توسعا كبيرا في البحث المعنوي والفلسفي ، في الكنائس أو في الفكر اللاديني .

وبالاضافة الى ذلك فان من المتعذر التحكم بالاخلاق اليومية عن طريق نفس القواعد الموضوعة منذ الاف السنين، والمعتبرة كقواعد لا تقبل التبديل . وهناك مثلا علاقة اكيدة بين نوع المجتمع وتنظيم العلاقات الاجتماعية والعائلية : فالمجتمع الابوي ، ناجم عن حياة الرعي التي انحدرنا منها حسب أقوال الانجيل ، والمجتمع الزراعي الذي كوننا ، والذي يسير اليوم نحو الزوال ، كان بحاجة لقواعد خاصة لم تعد اليوم مفيدة ، بل ويمكن اعتبارها ضارة . وتبدو بعض التحولات في التقاليد أمرا مفهوما ومقبولا ، ولن تلبث أن تدخل في صلب الاخلاق المتشددة ، ولكن الى جانبها تحولات خطيرة . ان على كثير من المحرمات القديمة ان تختفي (وفي المجال الجنسي دون شك) ، ولكن من الضروري خلق محرمات جديدة (في مجال اخلاق قيادة السيارات ، واستخدام العلم مثلا) . وهنا تبدو أيضا أهمية البحث الاخلاقي وضرورته الاكيدة .

٢) ولكن الاخلاق المتشددة لا تلعب بصورة عامة سوى دور سلبي دفاعي . أما دور الحافز الايجابي ، الذي يشارك مشاركة فعالة في تكوين المجتمعات ، فهو متروك لمحرك قوي هو سلم القيم في كل حضارة من الحضارات . ويتمتع هذا السلم بأهمية كبرى نظرا لانه يميل الى تحديد وتشكيل النخبة ، التي تشكل بدورها عاملا من عوامل التقدم .

وتتميز كل حضارة بطبيعة مفهومها عن النخبة . ان النماذج البشرية السامية ، كالقديس ، والبطل ، ورجل العمل ، والعالم ، والحكيم ، تتسم كلها بصفة مشتركة ،

هي كونها مفيدة . ولكن يمكن الحكم على مجتمع ماباستعداده لتشكيل هذه النماذج ، ولميوله وتفضيله لهذا الانموذج أو ذاك . ويظهر هذا التفضيل الغريزي أو الارادي الناجم عن التفكير عند النظر الى التسلسل الاجتماعي الذي يتجسد في مؤسسات هذا المجتمع . وينجم عن ذلك دوافع تؤثر رويدا رويدا على المجتمع كله وتطبعه بطابع خاص . وهكذا ، وخارج مجال تطوير الاخلاق المتشددة ، تظهر التأثيرات الحاسمة على الاخلاق ، عن طريق التسلسل الاجتماعي .

وهكذا ، وتحت غطاء من الاخلاق المتشددة التيلاتقبل التبديل ، انتقل الناس في الغرب من الاحكام الارستوقراطية المسبقة الى احترام الثروة المكتسبة ، ثم الى نوع من عبادة النجاح مهما كان مصدره وشكله . والمعضلة العمليةالمطروحة أمامنا هي أن نعرف ماهي الصفات التي نود تفضيلها .

ويوجد في العالم الماركسي أنموذجان هما : الـ « **أباراتشيك** » (١) رجل الجهاز الحزبي ، ورجل العلم . ويظهر هذا التفضيل على شكل ميزات مادية بالنسبةللمستوى المتوسط للانسان العادي . ولقد قدم اختيار العلم وتفضيله فوائد كبيرة ، وقاد الى نجاحات رائعة وسريعة على صعيد الابحاث المتقدمة أو على صعيد تثقيف الجماهير . أما تفضيل الـ « **أباراتشيك** » (الرجال الحزبيون) الذي يعتبر كعضو من الكنيسة اللادينية للماركسية المتعصبة ، فهو تفضيل محق في الاساس من الناحية المبدئية ولكنه قاد الى مبالغة تشبه مبالغة الكنيسة في نهاية القرون الوسطى وأدى الى :

---

(١) بالروسية في الاصل .

(المعربان)

مكاسب مادية على غير استحقاق ، وعقلية محافظة ضيقة . ولا بد أن نقول هنا ايضا بأن اعداد « الابارانشيكي » (الرجال الحزبيون) خلال الحقبة الستالينية لم يسهم في تطوير الشخصيات . ومن المحتمل أن يفقد هذا الانموذج الذي يمثله بريجينيف جزءا من تفوقه لصالح الانموذج الصاعد ، اي انموذج التقني الفعال ذي المستوى الرفيع والذي يمثله كوسيغين مؤقتا . ولكن تفتت الماركسية الايديولوجي يعد لولادة عقيدة يتم في داخلها تركيب منجزات العلم مع الميول نحو الروحانية . وعندها سيجد الفكر والفن ولا شك المكانة الكبيرة التي عرفاها في روسيا القديمة .

ويظهر التسلسل الاجتماعي في أمريكا بمؤسسات تضع على رأسها رجل الاعمال الكبير ، وتقني الاعمال ، ورجل العمل ، والزعيم السياسي ، وتقني الاعمال العامة ، الخ. وتضع خلفهم قليلا التقني العلمي الكبير . ويسير الى جانب هذا التسلسل سلم رواتب ومكاسب يحمل الكثير من الامتيازات . وهكذا فالمقياس هو الفاعلية ، وهو يتلاءم كل التلاؤم مع الانفجار التقني الذي شهدته البلاد . ولكن هذا التسلسل خاضع مع ذلك للاحكام المسبقة الباقية منذ العصر الديني المتشدد ، والتي تعتبر حتى الآن دليلا اخلاقيا ، كما انه خاضع للحساسية المفرطة ازاء الشيوعية التي ينظر اليها كشيء شيطاني (لا يستطيع روكفلر المطلق أن يصل الى منصب رئاسة الجمهورية ، قضية او بنهايمر ، الخ) . وبالاضافة الى ذلك فان هذه الفاعلية التقنية المجنونة لا ترتبط بشكل جيد مع مفاهيم عامة ، ولقد بقي التفكير الفلسفي غير كامل نظرا لانه لا يعطي ربحا كافيا . واذا استثنينا فن زخرفة العمارة ، وجدنا أن الفن الذي تشتريه اوروبا بسعر الذهب غير متطور في أمريكا. والادب « الثقافي»

الذي تنتجه الولايات المتحدة الامريكية معارض للتقاليد السائدة في هذه البلاد . ومن المؤكد ان الحضارةالامريكية تشكو من فرط الفاعلية ونقص في الثقافة والحكمة . ولا بد لها أن تدخل الفنان والمفكر في معبدها .

ويقف التسلسل في الغرب الاوروبي مرتكزا على المفاهيم القديمة والمفاهيم الحديثة بآن واحد . فلقد بقي من العصور الارستوقراطية والبورجوازية احاطة الرجال العظام ، والمشاهير ، والمفكرين ، والفنانين ، والعلماء باحترام اجتماعي واضح . ولكن هذا الاحترام معنوي لاينجم عنه أية مزايا مادية ، لدرجة تجعل التنافس يميل الى ابعاد الشباب عن هذه الاعمال المحترمة ، وتوجيه جهودهم نحو سبل أكثر دخلا : هي سبيل « مدير الاعمال » ، وتقني المشاريع الكبرى ، والتقني العالي في مجال الصناعة . ويمكن الى حد ما تبرير استنزاف الادمغة هذا « **Brain drain** » الذي يمثل في حد ذاته « أمركة » الحضارة الاوروبية ، وذلك نظرا لاهمية الاقتصاد والتقنية في العالم المعاصر . ولكن من المؤكد انه اذا لم نتوصل الى اعادة تقييم المهمات السياسية ، والفكرية ، والفنية ، ومنحها مزايا ماديةكافية، فاننا سنقع في اختلال التوازن الذي يعيشه الآن كل من الاتحاد السوفييتي وأمريكا .

ويقود كل هذا التحليل الى استنتاج مفاده أن مسألة النخبة في كافة الحضارات المتقدمة المعاصرة محلولة بشكل سيء ، لان سلم القيم لا يحمل في داخله توازنا كافيا بين الفاعلية التقنية من جهة والحكمة من جهة اخرى . ويرجع ذلك اما الى أن المجتمع لا يعترف كما ينبغي بدور الحكمة الضروري ، أو لان تطور الحكمة نفسه غير مؤمن بشكل

جيد . ولذا فان على حضارة المستقبل السير باتجاه ثقافة تعي قيمة الحكمة بشكل أفضل بغية تحقيق التناسق الضروري الذي فقدته حضارتنا .

ولكي يتم ذلك ، لا بد من اعادة التوجه في المجال الفكري والاخلاقي ، وفي مجال المؤسسات أيضا .

٣) ويبدو ان على **اعادة التوجه الفكري** التي بدات على نطاق واسع ، في بعض المجالات على الاقل ، أن تركز جهودها على البحث عن فهم أفضل للمعضلات الاجتماعية، والسياسية، والتاريخية .

والحقيقة ان الفائدة المباشرة التي أخذت كمقياس لتطور النخبة خالقة التقدم التقني تبدو غير كافية اذا ما الغي تقدم المجتمع او ثبت خطله بسبب ظواهر جماعية كبيرة . وتفرض معرفة آليات التاريخ والتطور نفسها في سبيل توجيه العمل واعطائه طبيعة عقلانية . أما السيطرة على مراقبة التاريخ ، التي يحاول الماركسيون تحقيقها ضمن اطار فلسفة منهجية أكثر مما ينبغي ، فان من الضروري اعدادها انطلاقا من قاعدة أوسع . وسيكون هذا العمل ولا شك مهمة من مهمات الاجيال الشابة التي أخذت تعي الى حد ما ضرورة هذا الامر .

والمهم هو أن يجد المثقفون سبيل الابحاث الاساسية البعيدة غالبا عن كل تطبيق مباشر ، والرامية مع ذلك الى حل المعضلات الكبرى المطروحة أمامنا . ان عصر الدقة والمهارة او الصنعة والتكلف المعتبرتين كفنين للمتعة ، هو العصر الذي ميز اهتمامات الانتليجنسيا منذ بداية هذا القرن . ولكن لا بد ان يترك هذا العصر مكانه لعصر الجهود «الملتزمة» فعلا ، لا تحت لواء عقيدة موجودة مسبقا ، بل بغية السعي بأكبر سرعة ممكنة لسد التأخر الفكري الذي نعاني منه

بالنسبة للتقدم المادي . ولقد فتح الماركسيون السبيل في هذا المجال .

ولا تكون مثل هذه الجهود عفوية الا نادرا . ولا بد من جذب الباحثين الى المواضيع التي ينبغي سبر أغوارها ، ودفعهم الى البقاء في هذه المجالات عن طريق الامتيازات المادية الكافية . ويملك البحث العلمي اليوم امكانات كبيرة ـ في بعض البلاد على الاقل ـ على حين لا يزال البحث الاجتماعي ، والتاريخي ، والفلسفي في طور البداية ، وغالبا ما يتعثر ويتجه نحو تحليلات عديمة الجدوى . وهذا يعني: **اننا بحاجة لمختبرات كبيرة للافكار .**

ويشكل البحث الفني والادبي وسيلة للوصول عن طريق الالهام الى معلومات رفيعة المستوى ، يتم التعبير عنها بلغة الفن ، وعلى هذا البحث أن يتجه بشكل واع لكشف مجال الحساسية الانسانية ، مع القناعة الكاملة بأن على البحث هنا ان يسهم قبل كل شيء في تقدم الانسان ، لا في تسليته ، أو في البحث عن الربح المادي المبنى على السنوبية .

فاذا ما انتقلنا من مجال الاخلاق الى مجال **التكوينات** ـ التي يطلق عليها في التعبير المعاصر اسم البنيات ـ وجدنا كافة الصعوبات التي تفصل المفهوم عن التنفيذ . وبالاضافة الى ذلك ، تظهر الحلول أحيانا في بعض المجالات دقيقة الى حد كبير ، على حين نجد انفسنا في حالات أخرى أمام تناقضات تبدو بلا حل . ولكن بوسع عمليات النضج الضرورية أن تكون سريعة جدا في عصر التطور الذي نجتازه .

١) وبهذا الشكل ، جاءت أحداث مايو (ايار) في فرنسا ، فأوجدت الوعي بالدور الكبير الذي تلعبه التربية الوطنية ، وضرورة ادخال الكثير من التعديلات الملائمة على هذه التربية . من المؤكد ان الحضارة البورجوازية اكدت

الى حد بعيد على اهمية « التعليم العام » ولكن تم بناء هذا التعليم وفق أنموذج ليبرالي ، لا يتلاءم ابدا مع حضارة متأثرة بالاشتراكية الى حد بعيد . وبالرغم من اعتناق الكوادر الجامعية غالبا للافكار الماركسية ، لم تستطع هذه الكوادر فهم ضرورة اجراء اصلاح أساسي جذري . ومن هنا جاءت الازمة . وهكذا يبدو اليوم بكل جلاء ، أن مجال التربية الوطنية هو المجال « المفتاح » ،وهذا يعني انه المجال الذي ينبغي عليه أن يلعب الدور الرئيسي في اختيار النخبة واعدادها . كما يعني أن الاسلوب الحالي الذي يتلخص باعداد نخبة مثقفة عقيمة غالبا لم يعد يتلاءم مع متطلباتنا.

ويتجه النقد الاكبر نحو مفهوم الامتحانات التي تشكل اختبارات صدفية ، وتتطلب جهودا غير متناسبة ، وتقوم باختيار قابل للجدل والنقاش ، نظرا لنوعية الطلاب المستبعدين - الراسبين - ونظرا لطبيعة هذا الاختيار الذي يحدد حياة الشاب منذ بدايتها . والحقيقة ان الامتحانات اسلوب قاس من اساليب الاستبعاد (ويزيد من قسوته ان عدد المتقدمين الى الامتحانات يتزايد مع تزايد دمقرطة التعليم) يستهدف الى اجراء تحديد تعسفي ، نهائي،وسابق لاوانه ، للمجموعات الطلابية التي سيخلق منها فيما بعد وبصورة تعسفية ايضا طبقة متميزة ، وارستوقراطية من نوع جديد . ولا تؤكد الحياة العملية غالبا هذا الاختيار المدرسي البحت ، ولا ادل على ذلك من عدد الاشخاص غير المتفوقين مع انهم من الناجحين في « الامتحانات الكبرى » مثل فحوص كلية المعلمين العليا ، ولقب الاستاذية ، والبوليتيكنيك ، ومدرسة الادارة ، على حين ان عددا من الرجال الناجحين المشهورين لم يكونوا في شبابهم سوى تلامذة متوسطين ، ولكنهم طوروا انفسهم بجهدهم الشخصي

الدائب طوال سني حياتهم . ان سد السبيل نحو المهمات الكبرى أمام الاشخاص الذين لا تظهر قيمتهم الا فيما بعد ، امر غير ديموقراطي ، بل وغير عقلاني .

وتكمن الخطيئة الاساسية دون أدنى ريب في تحديد مقاييس الاختيار ووفق المعلومات النظرية التي يستقيها المرء من خلال شبابه ، دون الاهتمام بالخبرة ، أو بصفات الشخصية ، أو بالمحاكمة ، وكلها صفات هامة تأخذ كل قيمتها خلال الاحتكاك مع الحقيقة . ومهما كان نوع الاستبعاد المدرسي الذي يتم في البداية لتشكيل فئات معينة ، فان التجربة تؤكد بأن هذه الفئات لا تضم سوى ١٠٪ فقط من الاشخاص اللامعين الناجحين . ومع هذا فان معهد المناجم مثلا ، أو مدرسة الادارة تسمحان بالوصول الى مهمات تتطلب أكثر من ٥٠٪ من أفراد النخبة . **ان على الاختيار الضروري ان يكون أكثر تقدمية ، وأن** لا يضع في المراكز الكبرى الا الاشخاص الذين برهنوا على كفاءتهم خلال العمل، مع حصولهم على المعلومات النظرية الضرورية ، حتى ولو تم الحصول على هذه المعلومات فيما بعد عند الضرورة . وبالاضافة الى ذلك ، فان العيش في مرحلة تطور سريع يجعل المعلومات التي يحصل عليها المرء خلال شبابه قديمة متجاوزة عف عليها الزمن ، ولا تبرر الامتيازات المجتناة . لذا فان من الضروري اللجوء الى دورات تدريبية متتابعة بين مراحل النشاط العملي . وهذا ما يؤدي الى اسلوب تعليم مستمر يسمح باجراء اختيار اشد دقة واكثر صوابا ، لانه لايعتمد على الامتحانات فحسب ، بل على الصفات التي تبرز خلال العمل ايضا ، سواء اكانت هذه الصفات في المجال العملي ام النظري .

ويتطلب مثل هذا المفهوم وجود تسلسل متدرج مفتوح

بشكل واسع منذ ان يبلغ المرء سن العشرين ، ومتعلق بنموذج معين من المهن ، (ادارة ، صناعة ، اعمال ، جيش ، تعليم ، فن ، الخ) ولكنه يقدم في الوقت نفسه امكانات « متنوعة » في بعض المستويات ، ولا يقوم بعملية اختيار الاشخاص للمراكز المتوسطة الا في سن الثلاثين تقريبا ، ولا يختارهم للمراكز الكبرى الا في سن الاربعين . ومن الطبيعي ان انشاء مثل هذا التسلسل المتدرج يتطلب تخطيطا مبنيا على توقعات المستقبل بغية اخذ المتطلبات المقبلة بعين الاعتبار . وبالاضافة الى ذلك ، فان على الاحتمالات المتعددة المتوقعة أن تسمح بتبديل الوظيفة او العمل واختيار اعمال جديدة تتلاءم مع الميول والمواهب التي تظهر بصورة متأخرة ، ومع التحولات الممكنة في مجال التوقعات . وهكذا يبدأ المرء عمله بصورة طبيعية في سن ١٨ – ٢٠ سنة ، وذلك بأن يلتحق **بمدرسة اعداد** ، ترافقها خلال العطلات فترة خدمةوطنية: ثم تعقبها بعد ذلك دورة عملية في منصب صغير ، حيث يتم اول اختيار ، ثم يلي ذلك العمل في منصب عملي اهم من ذلك بقليل . وفي سن ٢٨ – ٣٠ سنة يتم اختيار جديد عند الالتحاق **بدورة تحسين المعلومات** التي تحدد اختيار الاشخاص للمناصب المتوسطة التي يشغلها المرء في ثلاثينات عمره . ثم يقبل افضل العناصر في **المدرسة العليا** المعدة لاختيار واعداد المؤهلين للمناصب الكبرى ، والتي تفتح المجال امام وظائف المساعدين . ويستطيع هؤلاء المساعدون وهم في الخمسين من عمرهم الانتقال بعد **دورة تدريبية** اذا لزم الامر الى مناصب من الدرجة الاولى. ومن الطبيعي ان في هذا المخطط استثناءات يستفيد منها الممتازون من النخبة . ولكن ينبغي ان نعرف بأن مثل

هذا التقدم المتعارض مع فكرة الاعتماد على الشباب الدراجة في هذه الايـام عبارة عن امر ضروري اجتماعيـا ، اذا كنا لانود الحكم على عدد كبير من الاشخاص باستلام مناصب بسيطة متواضعة .

ان كل صيغة مشابهة من هذا النوع ، تتعلق بحيـاة الانسان لا تتحدث عـن معضلة **التكوين الاولي للشبيبة .** ويبدو لنا ان امامنا في هذا المجال اصلاحات عديدة هامة لا بد من تنفيذها . وتتناول هذه الاصلاحات المفهوم الاساسي للتعليم ، وارتباط هذا التعليـم بخدمة حيـاة الانسـان البالـغ .

لقد تعرض المفهوم الاساسي للتعليم الى الخطأ علـى مـا يبدو بسبب الاعداد الذي حصل عليه الاساتـذة انفسهم . اذ تعرض هؤلاء الاساتذة لدراسات صعبة ،غير مجدية ، وجـد متخصصة . كمـا دخلوا امتحانات مزعجة معقدة ففهموا في نهاية المطاف ان دورهم هو تطبيق الانموذج الذي فرض عليهم وهذا ماجعلهم يميلون الى وضع اسس تعليمية وبرامج تضم كل التعقيدات التي حصلوا عليهـا بجد واجتهاد . وهكذا تضخمت البرامج بشكل يجافـي المنطق ، وابتعدت عن كـل ثقافة حقيقية ، وعن كـل المطالب العملية ، لتفرض معلومات نظرية جافة يستحيل هضمها . وغرق الاطفال في مجموعة متباينة من المعلومات مع انهم يجهلون **الجوهري** . ومن الضروري العودة الى هذا الجوهري مع البدء بالاهتمام بالامور العملية : كالكتابة ، والحساب ، اتقان الحديث باللغات الاجنبية ، ومعرفـة قواعد الانشاء ، والادب ، والمعلومات العلمية .

وهناك الكثير ممـا يجب عمله في مجال اساليـب التعليم . فلقد فقد «الدرس الفخم» الموروث من التطبيقات

التي سبقت الطباعة ، كل اهميته . والكتاب موجود لنقرأه ، ونفسره ونوضحه خلال المناقشة . ولكن الكتاب نفسه وسيلة زال اوانها في ايامنا ، تجاوزتها السينما والتلفاز اللذان يسمحان بحصول غالبية التلاميذ على افضل الدروس الممكنة المزدانة بالصور والمخططات . ولم يعد الاستاذ التقليدي «عبارة عن مخترع»لدرس خصوصي، بل اصبح مدربا ومكررا ، وهذا ما يعدل طبيعة دوره ، ويجعل هذا الدور يعتمد على اساليب التعليم اكثر من اعتماده على تراكم المعلومات ، ويسمح باجراء اصطفاء اوسع ، بعد ان اصبح هذا الاصطفاء ضروريا بسبب عدد التلامذة المتزايد .

اما ارتباط التعليم بخدمة حياة الانسان البالغ ، فان من المؤكد ان عليه ان يشغل جزءا اكبر في توجيه الشبيبة الضروري نحو مختلف الاعمال ، خاصة وان التعليم يشمل اليوم هذه الشبيبة كلها . ولقد لوحظ بصورة خاصة ان ديموقراطية التعليم عممته على الجميع ، وجعلته يدفع الى المرحلة الاعدادية التقليدية ثم الى المرحلة الثانوية عددا من الطلاب يفوق الفرص التي يمكن لهاتين المرحلتين تقديمها . ولم يجتذب التعليم « التقني » الشبيبة ،نظرا لعدم تمتعه بالمهابة المطلوبة ، ولقلة فرص العمل المتاحة امام الخريجين . وليست فكرة « القاعدة الموحدة » حتى السنة الرابعة سوى حل مؤقت غير جذري . كما انوجود امتحان للانتقال من صف الى آخر يؤدي الى استبعاد اطفال قليلي النضج يثبتون غالبا كفاءة كبيرة بعد البلوغ . ويبدو ان على « اشتراكية » التعليم ان تستند الى انشاء **تسلسلات متدرجة مهنية** منذ الانتهاء من مرحلة التعليم الابتدائي المشترك ، اي في سن الـ ١٢ تقريبا .

واذا ما دفعنا هذا المفهوم الى الحد الاقصى ، امكننا ان نتصور ان كافة الاطفال المتعلمين في نوع من مدارس الاطفال المهنية المتخصصة (زراعة ، صناعة ، تجـارة ، خدمات عامة ، جيش ، تعليم ، الخ .) والتي تقدم اماكن مجانية وفق التخطيط العام ، سيكونون اطفالا يحملـون الثقافة القاعدية ، بالاضافة الى المعلومات المهنية النظرية والعملية . ثم يظهر مع الزمن بالتدريج من سيقتصرون على المعلومات العملية ، ومن سيحصلون على معلومات نظريـة اعلى في مدارس الاعداد والتأهيل . ومن الضروري ايضـا اجراء تبديلات مستمرة على التسلسل المتدرج ، كيمـا يأخذ بعين الاعتبار الميول والمواهب الجديدة التي يمكـن ان تظهر مع الزمن . ان هذه المرحلة التعليميـة التـي سنطلق عليها اسم المرحلة الثانوية ـ حتى لانجردها مـن مهابتها ـ ستكون بالدرجة الاولى مرحلة تكوينية . اي انها ستحمل في داخلها توازنا صحيحا بين الثقافة والرياضـة والتدريب اليدوي العملي . وتعطي هذه المرحلة شهـادة التعليم الثانوي التي لا تسمح بدخول مدارس التأهيل . ولكنها تفتح الباب امام جميع المهن . ولا تكون الكليـات والمعاهد في هذه الحالة سوى مدارس تأهيل خاصـة ،كما هي الان كلية الطب . ولكن بدلا من ان تتوجه هـذه المعاهد دفعة واحدة نحو الدكتوراه فانها تقوم بدورات نظريـة متعاقبة لمختلف الدرجات ، تتخللها دورات عملية .

ان من غير المحتمل ان يتم تطبيق مثل هذه الصيغـة الجذرية دفعة واحدة ، والقيمة الاعتبارية البورجوازيـة للتعليمين الثانوي والعالي ستدفع الى الاحتفاظ بهما الى

جوار التعليم المدعو وياللاسف بالتعليم « التقني » (١) الامر الذي سيؤدي ولا شك الى تخفيض قيمة هذا التعليم . والسبيل الوحيد الى رد اعتبار هذا التعليم هو فتح فرص العمل المهنية امامه (الامر الذي لايؤمنه التعليم الثانوي في الوقت الحاضر) ، بالاضافة الى السماح لخريجي مدارس التعليم التقني بدخول نفس مدارس التأهيل التي يلتحق بها خريجو التعليم الثانوي ، وهذا يعني حصولهم على اعمال عليا . وعلى كل حال فان من الضروري العمل على اعطاء كافة الاطفال قواعد متشابهة ، ثم العمل على انتقاء النخبة بصورة جد متدرجة ، دون ان نقطع طريق المستقبل نهائيا امام من يحققون تقدما لاحقا او متأخرا .

ومن الطبيعي ان كل هذه التنظيمات الخاصة بالتعليم نفسه غير قادرة على تنفيذ المهمة الجوهرية المتمثلة في **البحث** . ويتم البحث وفق المفهوم التقليدي في أوساط التعليم العالي . ولكن يبدو ان هذا لم يعد ممكنا ، وان من الضروري ان يقوم بالبحث فرع متخصص ، يضم اشخاصا من مختلف المراتب لا يقومون بالضرورة بعمل تعليمي . وبوسع هذا البحث الذي تقوم به سلسلة من **المؤسسات** المتخصصة ، والمفتوح امام كل الامكانات والقدرات ، ان يكون «مختبر الافكار» الذي غدا ضروريا بشكل لا يحتمل الجدل . وسيكون من الضروري في هذه الحالة تنظيم عملية رشح متبادل بين هذه المؤسسات ، ومؤسسات التعليم العالي ، على ان يتم ذلك بواسطة محاورات للاستعلام في المؤسسات ، او بمشاركة بعض الباحثين في مجال

---

١ ـ يطلق عليه في بعض البلدان « التعليم الفني » .

(المعربان)

التعليم العالي . ولكن لا يمكن لمثل هـذه المؤسسات ان تستجلب عددا من المتحمسين الا اذا كان العمل فيها يفتح الفرصة أمام الباحث للدخول عنـد الضرورة الى قمـة « L'institut de France » أو في اكاديميات العلـوم والآداب .

واذا كنا نرى بوضوح كاف الحلول المرسومة للبنيات الجامعية ، فان علينا ان نعترف بأن التطور المتوقع **للبنيات الاقتصادية** اقل من ذلك وضوحا .

وكل ما نراه بوضوح هو ان من الضروري ايجاد حـل وسط بين الاشتراكية والحرية . ولكننا لا نستطيع ان نتوقع هل سيتم الحصول على هذا الحـل الوسط انطلاقا مـن الشيوعية بعد اتجاهها نحو الليبرالية ، كما هو الامر فـي يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، ام ان الليبرالية الاقتصادية الامريكية العاملة تحت لواء الأتمتة ستصل في النهايـة الى الصيغة العملية الضرورية . وتستطيع الرأسمالية الغربيـة في فرنسا ، والسائرة نحو مزيد من الاشتراكية تحت شعـار « مشاركة » العمال في الادارة ان تصل الى حلول قريبة من التسيير الذاتي اليوغوسلافي ، مع البقاء في جـو اقتصاد السوق . وقد يكون هذا هو السبيل الممكن الثالث .

وتدل التجربة السوفييتية (والصينية) على كل حال ، على ان من الضروري الوصول الى اسلوب مختلط ، يضـم قطاعا خاصا وقطاعا مؤمما . ولكن مفهوم القطاع المؤمم نفسه يأخذ اشكالا مختلفة حسب درجة الاستقلالية الممنوحـة للمصانع والمؤسسات ، واسلوب المركزية الـذي يربط فيما بينها . ونلاحظ في الاسلوب الليبرالي الامريكي ان المركزية وضبط الاسعار تؤدي الى خدمات عامة واسعة ، ولكـن

آليات رأس المال المغفل تجعل دوافع الربح في هذه الخدمات العامة مقتصرة على القمة . وتمارس هذه المصالح الخاصة ، المدعومة من كبريات البنوك ، تأثيرا اقتصاديا وسياسيا لا يتناسب مع امكاناتها ومؤهلاتها التقنية . ويوجد في هذا المستوى تشابك بين البنيات الاقتصادية وبنيات الدولة . وتقدم المصانع والمؤسسات الكبرى في الولايات المتحدة الامريكية واوروبا الغربية جزءا كبيرا من عملها للدولة ، وذلك عن طريق الضرائب التي تدفعها ، والتي تشكل قسطا لا بأس به من المصادر المالية للدولة . وتحدد الدولة في الاتحاد السوفييتي الاسعار وارباح المؤسسات بصورة مباشرة بغية تمويل ميزانيتها . وليس في هذا البلد ضرائب مباشرة او حسميات لصالح التأمينات الاجتماعية . ويقدم كل نظام من هذين النظامين ميزات ومساوىء . ولكن هناك من الدلائل ما يدفعنا الى التفكير بأن الضرائب الفردية ، المزعجة ، القليلة المردود عبارة عن صيغة قديمة لم تعد تصلح للاقتصاد الحديث .

والمظهر الآخر للبنيات الاقتصادية هو تنظيم مراقبتها العفوية او المصرفية او بواسطة الدولة ، عن طريق المركزيات الشاقولية للحاجات العالمية ، او عن طريق « **المجمعات** » المحلية ، او عن طريق المهنة الواحدة . وهنا لا بد لنا من ان نشير الى ان المراقبة المصرفية تتشابه الى حد بعيد معمراقبة الدولة (وخاصة اذا كانت البنوك مؤممة) . وان هذه المراقبة وحدها تسمح بتشكيل صورة تركيبية كاملة للاسلوب الاقتصادي كله . ومن المقبول ايضا ان تظهر مراقبة اخرى تهتم بحسن سير سوق العمل على المستوى الاقليمي الذي يمكن معالجة الصعوبات فيه بسهولة تفوق سهولة معالجة الصعوبات المماثلة على المستوى الوطني .

ويبدو ان من غير المعقول محاولة حل معضلات البنية الاقتصادية عن طريق نظرية كاملة من نوع النماذج الماركسية او المشروع الحر . والحلول متعددة متباينة حسب الاوضاع المحلية . ولا يمكن ان تكون هذه الحلول على المدى الطويل سوى امور مخلوقة بصورة عفوية ، ومنفذة تدريجيا انطلاقا من بنيات موجودة . ويتأثر هذا التكوين التجريبي بالضرورة وبالطبع بالمفاهيم النظرية ، او بالاحكام المسبقة. ولكن الصيغ التي لا تستحق الحياة ستختفي لوحدها عاجلا ام آجلا ، ويتم التقارب الضروري ، شريطة ان لا تكون القناعات الاساسية في المجتمع مضادة للاقتصاد . اذ ينجم في هذه الحالة تكيس في البنيات يؤدي الى الركود او التراجع ، ويكون في افضل الحالات شكيمة توقف الازدهار . فالاقتصاد يملك كاللغة منطقه الداخلي الخاص .

ولكن هذا المنطق الجبري المرغم يضم عددا من القواعد التي غدت اليوم معروفة . والقانون الاساسي هو الذي يربط التوسع ربطا مباشرا مع التثمير والانتاج . ان هذا الاكتشاف القريب الى حد ما يفرض القيام بتوفير فعلي كبير ، اي عدم قيام الاشخاص باستهلاك جزء من منتجات الاقتصاد ، بغية تحقيق تحديث وملاءمة الانتاج بصورة مستمرة . ان هذه الضرورة الاكيدة ، اللازمة في اقتصاديات البلاد المتخلفة اكثر من لزومها في الاقتصاديات المتقدمة ، تجبر على تطبيق **سياسة دخول** حازمة ، ومعدة بشكل صحيح جدا . ومن المؤكد مثلا ان المصروفات غير المجدية التي تقوم بها البلاد الفقيرة تشارك الى حد بعيد في ركود هذه البلاد . ويمكن اعتبار الدخول العالية جدا في البلاد الغنية خسارة للاقتصاد ، اذا لم تثمر هذه الدخول على نطاق واسع . كما ان ارتفاع دخول البعض يؤثر تأثيرا كبيرا على دخول الفئات الاجتماعية

الاخرى ، ويمنعها من الصعود : ان الدخل القومي قطعة من الحلوى تقسم على سكان البلاد ، وكل اضافة يأخذها فرد ما مقتطعة من حصة فرد آخر . وهنا نجد انفسنا امام ميلين مختلفين متناقضين : فأما ان نحدد النجاح عن طريق تحديد المكاسب الكبرى مع الوقوع في خطر الاساءة الى المبادهة والمنافسة الكامنة وراءها . او السماح بتحقيق الارباح الكبيرة كدوافع اساسية للاقتصاد ، ولكن على حساب دخل الجماهير . والحقيقة ان الوصول الى النتيجة الملائمة هنا يتم عن طريق الحل الوسط ، وهذا ما اعترف السوفييت به اخيرا عندما اضطروا الى خلق مروحة كبيرة جدا من الاجور بغية مكافأة الافراد وفق فاعلياتهم . وهنا فان من الضروري ان تتطابق مروحة الاجور العملية الى ابعد حد ممكن مع سلم القيم الاجتماعية الذي نود تطبيقه . فاذا كانت حضارتنا تسير نحو اشتراكية اكثر تطورا ، وهذا امر كبير الاحتمال، فان عليها ان تعرف كيف تدخل العوامل المعنوية والفكرية في اسلوبها المقبل للتوزيع . وستشكل « **سياستها الخاصة بالدخول** » عنصرا هاما من عناصر بنياتها الاقتصادية ، واسلوبها المتعلق بتسليم مقاليد الامور للنخبة .

٣) وليس مستقبل **بنيات الدولة** اكثر وضوحا . ولا شك في صحة الانتقادات الموجهة الى الدولة الحالية ، المنظمة والمركزية بصورة مفرطة ، والتي نجم عن صفاتها هذه ان اصيبت بالتصلب ، وغدت اشبه بالدولة الفرنسية في نهاية النظام القديم (١) . ولكن الصيغ المطروحة للتخلص من

---

(١) **النظام القديم** : هو النظام الملكي الذي سبق الثورة الفرنسية — المعرب — .

المركزية نظرية اكثر مما ينبغي . وسيتم كثير من الجس والبحث قبل ظهور الحلول العملية الى النور . وفي الوقت نفسه ، يظهر لنا بوضوح متزايد ان الآليات السياسية ، اي الوسائل التي تساعد الرأي العام على مراقبة الدولة ، لم تعد متلائمة مع تعقيد الظواهر . ولقد أشرت في « **بناء المستقبل** » (١) الى عدم كفاية التمثيل الجغرافي للسكان، ذلك التمثيل الذي وضع في القرن الثامن عشر وفقا لمتطلبات الملكية الزراعية . كما اشرت الى ضرورة بناء مراقبة الادارة على مشاركة الامكانات والفاعليات الوطنية بشكل افضل . ويأتي الخطر كل الخطر من رؤية سلطة الدولة كلها بيد ادارة تملك كل الصلاحيات والسلطات ، او بيد حزب واحد . ولا يمكن ان يكون « التسلط الفردي » سوى حل انتقالي ، يتلاءم مع وجود رجل دولة من نوع فريد نادر المثال .

ويبدو أن على البنيات الديموقراطية أن تتماسك وتبقى في المجال السياسي ، عن طريق تعديل وتطوير نفسها باتجاه زيادة مشاركة الرأي العام في القرارات الجوهرية بصورة مستمرة . وتتطلب هذه المشاركة أن يتم قبل كل شيء تقدم كبير في حقل التعليم ، ثم في مجال **الاعلام** . وهنا تظهر أمامنا معضلة كبيرة يمكن حلها بواسطة اخلاقيات الاعلام التي تسمح بنشر المعلومات الموضوعية الى أبعد حد ممكن ، مع نشر الاراء المتباينة الموزعة بشكل عادل . أما استشارات الرأي العام ، التي يمكن لعمليات السبر ان تسبقها دون أن تحل محلها ، فيمكن أن تتم وفق أشكال مختلفة باختلاف المواضيع : على مستوى محلي ، أو مستوى المنطقة

---

(١) ـ الصفحة ٩٣ وما بعدها « تطور المؤسسات » ـ المؤلف ـ .

أو الوطن كله . أو على مستوى مهنة ما ، او فئات اجتماعية معينة . وستشهد المرحلة القادمة بشكل اكيد ابتكارات عديدة في هذا المجال .

وتتجه الامور بالنسبة لبنيات الدولة على ما يبدو نحو تفتيت المركزية ، والقاء سلطات الادارة على عاتق المناطق ، واحتفاظ المؤسسات الوطنية بالادارة العامة ، والشؤون المشتركة . فاذا ما تم هذا التطور بنجاح ، أصبح انشاء أوروبا الاتحادية أكثر سهولة (أو أقل صعوبة) شريطة الحذر كل الحذر من أن يظهر على مستوى الدولة الاتحادية الجديدة نفس العيوب والميول المركزية التي كانت في كل دولة من الدول القومية . ومن الضروري في هذه الحالة ان يتعلم الناس معنى الاتحاد داخل الامة أولا .

استنتاجات :

لقد راينا ان التحولات المنتظرة التي نتوقعها كبيرة في كل المجالات . وليس هناك صيغة خاصة لا يمكن الاستغناء عنها . ولكن التحول العميق مؤكد على المدى الطويل .

ويمكننا أن نلاحظ وسط هذه المشاريع المتعددة ،مالا يمكن تحقيقه الا على مراحل ، وبعد عمليات مطابقة متدرجة (المفاهيم الاساسية ، والاخلاق ، والبنيات الاقتصادية) ، كما يمكننا ملاحظة ما يمكن أن ينجم عن قرارات حكومية واعية (البنيات الجامعية ، وبنيات الدولة) . ان على الفكرة ان تسبق العمل ، وعلى التعليم ان يسبق التنفيذ . ولذا فان من الواضح أن الاصلاح الجامعي ملح اكثر من غيره ، وسيكون أجدى من غيره بلا جدال . وبالاضافة الى ذلك يشكل وضع سياسة توزيع الدخول بشكل افضل يستهدف تطوير الاقتصاد والنخبة المفتاح الاساسي للاصلاح المنتظر . أما التعديلات الدستورية ، الممكنة دائما ، فهي أقل الحاحا وتأتي في الافضلية الثانية .

ويبدو أن على العالم الحالي على كل حال أن يتطور نحو تنظيم أدق ، ولكنه اشد ليونة واكثر ديموقراطية . واخيرا فان مستقبل الحضارة التي تبنى الان سيعتمد كل الاعتماد على سلمها الخاص بالقيم ، وعلى النخبة التي ستعرف كيف تطورها وتحركها .

الجزء الثاني

توقعات الاحـــداث

الفصل الرابع

الاحداث التي تعد

والآن ، وبعد محاولة التعرف على الميول المختلفة التي تظهر في عصرنا ، فان من المهم اكتشاف اتجاهات الاحداث التي تعد . وقد لا يقع بعضها ابدا ، ولكن البعض الآخر سيقع وفق كل احتمال . وستؤدي هذه الاحداث حسب تسلسل ظهورها الى نتائج خاصة متباينة لابد لنا من تعدادها. وللقيام بذلك فان علينا قبل كل شيء ان نضع لائحة مختلف الامكانات المحتملة .

★★★

وأول هذه الامكانات التي تجري الآن هي حالة النضج والتفتت التي تشهدها **أوروبا الوسطى والشرقية** وسط انظمة الدول المرتبطة بالاتحاد السوفييتي ، والتي جعل الاتحاد السوفييتي منها حاجزا غربيا بعد الحرب العالمية الثانية . تلك الحالة التي نجمت عنها أزمة تشيكوسلوفاكيا. وبالرغم من التحولات المحتومة ، والتصلب السوفييتي الذي يتفق مع العودة الى سياسة ستالينية جديدة ، فلا بد أن تتطور هذه الظاهرة باستمرار . ولن تلبث ان تؤدي الى تبديلات هامة ، سواء في خلق صيغ اكثر ليبرالية داخل العالم الشيوعي أو في توازن أوروبا السياسي . وقد تسبب قبل ذلك توترات خطيرة بين الشرق والغرب ، وتعيد الى الاذهان أسوأ ساعات الحرب الباردة التي عرفها العالم في الخمسينات .

ولكن علينا أن ننتظر منها نتائج أخرى داخل الاتحاد السوفييتي نفسه ، حيث أن عدم تعاطف الشبيبة وجزء كبير من الشعب مع النظام هناك ، سيؤدي بعد فترة غير بعيدة الى أزمة في الشيوعية الستالينية (يحدد البعض تاريخ هذه الازمة في عام ١٩٧١ – ١٩٧٢ ، مع التأكيد بأنها ستتم قبل عام ١٩٧٥ حتما) . وقد تصل هذه الازمة الى نتائج متباينة : ومنها نتيجة متطرفة تتمثل باندلاع ثورة ليبرالية تدمر جهاز الحزب ، ولكنها تفتح الباب أمام ميول انفصالية خطيرة داخل القوميات المضطهدة بشكل أو بآخر (بلاد البلطيق ، أوكرانيا ، القفقاس ، جمهوريات آسيا) . والنتيجة المتطرفة الثانية هي رد فعل ستاليني جديد، يقوده رجل حديدي يفرض انضباطا قويا مضادا للخروتشوفية. وبين هاتين النتيجتين المتطرفتين ، يمكن للنظام الشيوعي متابعة تفتته مع بعض التوقفات المتتابعة ، والوصول الى تطور ليبرالي متتابع ، يجعل الاتحاد السوفييتي يلتقي من جديد مع الانظمة « المستصلحة » في البلاد الشيوعية الاوروبية الشرقية . وتشكل هذه التوقعات في التحولات الهامة القريبة نسبيا العنصر المركزي في الظروف الحالية.

وبصورة موازية لذلك ، نلاحظ في أوروبا الغربية بعد انتشار امركة الاقتصاد ، رفضا لمجتمع الاستهلاك والبنيات القديمة التي أصابها الهرم . ولا تضم هذه الحركة سوى الاقلية ، ولكنها تجتذب جزءا من الشبيبة المثقفة، ويمكنها أن تؤدي الى احداث هامة تشبه ما شهدته فرنسا في عام ١٩٦٨ . ومروحة الاحتمالات هنا أيضا عريضة جدا، بدءا من الثورة العنيفة وتبديل النظام ، وانتهاء بزد الفعل السلبي المستند الى سلطة متشددة ، والذي يمكن أن يصل الى شكل من اشكال الفاشية . ومن المحتمل أن يقع تفتت

مستمر للانظمة القائمة ، أو أن نشهد سلسلة اصلاحات بناءة قادرة على تلبية المطالب المطروحةتلبية مؤقتة لفترةمن الزمن. ومن المؤكد أن التعقيد السياسي في أوروبا الغربية قد يؤدي الى أوضاع جد متباينة حسب طبيعة البلد الذي سيفتتح الازمة . والذي يمكن ان يكون اي بلد اوربي : كأسبانيا والبرتغال بعد وفاة فرانكو وسالازار ، أو ايطاليا التي لا تعرف الاستقرار ، أو فرنسا بعد اختفاء ديغول أو فشله ، أو بلجيكا المقسمة ، أو هولندا التي تضطرم في داخلها تطورات عميقة تشبه تطورات انكلترا ، او المانيا التي لم تشف بعد من حمى النازية وعواقب الهزيمة .وتبدو مظاهر النضج حتى في السويد وسويسرا . ومن المحتمل أيضا ان تبحث أوروبا ـ باستثناء اسبانيا ـ بسرعة عن توازن جديد . وأن يكون حظ ظهور الحلول البناءة الضرورية فيها أكبر من أي مكان آخر ، وان تكون هذه الحلولوقائية قادرة على احتواء الازمة .

ويوجد في **أمريكا** قطاعان متناقضان : الولايات المتحدة وكندا من جهة ، وأمريكا اللاتينية من جهة أخرى .ويتصف القطاعالاول بأنه متقدم الى حد بعيد ويتمتعباقتصادمزدهر، ولكنه مفعم بالمصاعب الداخلية الناجمة عن مسألة التمييز العنصري (في الولايات المتحدة) وعن نقمة الانتليجنسيا المتزايدة على حضارة الاستهلاك بشكلها الحاضر . أما القطاع الثاني فهو متردد بين نوع من الاستعمار الاجتماعي الذي زال أوانه ، والاضطراب الاشتراكي الثوري . ويمكن أن تقع الاحداث في الشمال أو في الجنوب ، ولكنها لاتبدو محتومة على المدى القريب ، وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأنها لن تؤثر بشكل جذري ، ذلك لان قوة الولايات المتحدة

الاقتصادية والعسكرية ، ورغبة الامريكي العادي بالحفاظ على النظام ، وعدم ميله الى العنف تجعلنا نعتقد بأنه بالرغم من حالة النضج الداخلية ، فان من المحتمل أن تتطور الاحداث نحو رد فعل سلبي ازاء الاضطرابات ، وسيدعم رد الفعل هذا ويبرره الافضليات المعطاة للاقتصاد . وهنا نلاحظ أن اتجاه حرب فيتنام على طريق الحل الناجم عن الملل ، وسير المجابهة مع الاتحاد السوفييتي على سبيل الارتخاء ، سيسمحان للولايات المتحدة الامريكية بتركيز جهودها على مسائل قارتها . ولكن اذا ما اندلعت الاضطرابات في الجنوب، وتلتها الاضطرابات في الشمال ، نجم عن ذلك وضع يؤدي الى الظاهرة الفيتنامية ولكن على نطاق واسع . وستصاب قدرة الولايات المتحدة ولا شك بانهاك أكيد ، ولكنها لن تتعرض للخطر الا بعد مدة طويلة ، اي اذا ماغدت الصراعات والاضطرابات مزمنة . والخلاصة ، ان الوضع المتفجر في أمريكا اللاتينية يشكل الشغل الشاغل للولايات المتحدة ، وقد يؤدي الى ارتداد الامريكيين وتقوقعهم بشكل ما داخل قارتهم . ولكن الولايات المتحدة نفسها لا تزال تتمتع باستقرار كبير ، رغم الاخطار الداخلية الكامنة فيها . ولا يمكن لها أن تغدو مركزا لازمة ثورية كبيرة الا بعد فترة غير قصيرة ، وإثر مرحلة طويلة من الانهاك والاستنزاف . والاحتمال الاكبر هو أن تلعب الولايات المتحدة الامريكية في هذا العالم المضطرب دور القطب الرجعي . ومن الطبيعي ان سلسلة من الظروف المفاجئة اللامحتملة قد تؤدي الى عكس ما نتوقع.

وتعيش **الصين** في قلب الثورة الثقافية ، وتشكل القطب الثوري الاكبر في عصرنا . ويحتمل أن تؤدي هذه الثورة الى عدة أوضاع : فقد تنتصر الماوية في صين تتجه باضطراد نحو الازدهار والقوة ، وقد تنهار الماوية وسط

الفوضى الناجمة عن وفاة ماوتسي تونغ ، وقد يظهر على العكس رد فعل ستاليني ، أو تطور ليبرالي بالتناسق مع الولايات المتحدة الامريكية . وبالرغم من أن كل هذه الحلول ممكنة ، فان نسبة احتمال وقوعها غير متساوية .

وعلى مقربة من الصين ، تبني **اليابان** قوتها على قاعدة اقتصادية متينة . وتبدو بنياتها الاقطاعية قوية حتى الآن . ولكننا نلاحظ هنا أيضا بذور الثورة . ويزداد خطر هذه الثورة نظرا لانها مكبوتة منذ أمد بعيد ، ولان من المحتمل أن يكون انفجارها عنيفا جدا . ومع هذا ، فان الاحتمال الاكبر هو أن تشكل اليابان في آسيا قطبا من أقطاب النظام خلال فترة من الزمن على الاقل ، طالما استمر تطور الازدهار الاقتصادي .

ويعيش **جنوب شرقي آسيا** وسط الازمة منذ ٢٠ عاما . وتجري فيه الآن تحولات عميقة . ولكن طول مدة الحرب الفيتنامية أدى الى نوع من الملل العميق . وسيقود هذا الملل المنطقة بعد انتهاء الحرب الى تضميد جراحها ، بدلا من أن يدفعها الى اطالة مدة المغامرة الثورية .

وتعيش **الهند** صعوبة مزمنة . ولا تظهر المعضلات الثورية بوضوح نظرا لوجود معضلات أهم منها تتعلق بمسائل الحياة المادية الملحة . ومن هنا نجمت السلبية السياسية وسط عدم توازن داخلي كبير . وقد تجتاح الهند اضطرابات كبيرة ، ولكنها لن تشهد على ما يبدو ثورة كبيرة .

وفي الشرق الاوسط أزمة مفتوحة حادة ناجمة عن وجود اسرائيل . ولكن انعدام التوازن الداخلي كبير في كل بلدان هذه المنطقة نظرا للتطور الجاري داخل الحضارة الاسلامية السائرة على سبيل التحديث ، وللنفسية العنيفة

التي تتمتع بها هذه الشعوب ، وعاطفيتها التي تملؤهـــا بالحب حينا وبالكراهية آخر . وبالاضافة الى ذلك ، فان انقسام الشرق الاوسط (الذي تعتبر مصر جزءا منـــه) الى دول ذات أنظمة تقليدية ، واخرى ذات أنظمة تقدمية يخلـق عاملا اضافيا من عوامل انعدام التوازن . وتتمتع هذه المنطقة بأهمية عالمية بسبب ثرواتها البترولية . وهذا ما يجعلهـــا مسرحا للمنافسات التي تخلق الاضطراب . ان كل هـــذه الاسباب المجتمعة تجعل الشرق الاوسط منطقة اضطرابات مستمرة . ويعطي وجود اسرائيل للعالم العربي المجزأ نوعـا من الوعي المشترك ، ونوعا من التلاحم الذي لا يصل مـع ذلك الى مستوى الوحدة . وقد يؤدي استمرار المجابهـــة العسكرية بين الدول العربية واسرائيل مدة طويلة الى بعث أمة عربية كبرى . وعندها يصبح مستقبل اسرائيل نفســه حرجا . وعلى كل حال ، فان مسألة اسرائيل ستلعب خلال فترة طويلة دور المفجر الخطر في منطقة من أقل منـاطق العالم استقرارا .

وتشهد **أفريقيا** بعد تصفية الاستعمار حركات نضـج ثوري هامة ، يزيد من حدتها في بعض المناطق العمل المدمـر الناجم عن التأثير الاقتصادي الامريكي ، أو المغامرة العسكرية السوفييتية . ويزيد من حدتها في كل مكان تسلل المجموعات الصغيرة الصينية . وتقع في جنوب القارة دولة أفريقيـــا الجنوبية التي تغطيها روديسيا والمستعمرات البرتغاليـة . وهي تشكل رقبة جسر رجعية تسيطر فيها الاقلية البيضاء ، وتلعب ازاء الحركات الثورية الافريقية دورا مشابها لـدور الشبح المخيف الذي تلعبه اسرائيل ازاء الحركة العربيـة . وستمثل افريقيا الجنوبية وما حولها منطقة مجابهات خطيرة

في المستقبل ، ولكنه على ما يبدو مستقبل بعيد . وقبل أن يتم الصدام في الجنوب بفترة طويلة ، سيكون شمال أفريقيا مسرحا لاضطرابات كبيرة ، نظرا لانعدام توازنه الداخلي الناجم عن تزايد سكانه المضطرد بسرعة ، وتجاور الانظمة المتعارضة فيه .

★★★

ويدل هذا الاستعراض السريع على ان بوسعنا ان نكتشف في مختلف أقطار الارض تقريبا تطور الخمائر الثورية الجدية بصورة متباينة ، والتي تزيد الظروف المحلية حدتها وخطورتها . ان تحولات جد كبيرة تعد في العالم ، ولكن من الصعب تحديد سيرها وتعاقبها . ولا يمكننا سوى اللجوء الى أسلوب تحديد الفرضيات المحتملة المتلائمة مع الخط العام الذي يمكن للاحداث أن تأخذه .

وتقول الفرضية المحتملة الاولى بأن العالم سيشهد تطور **حركة ثورية عالمية** تنطلق من قطبين هما الصين وأوروبا الغربية والوسطى . وتؤثر الصين على أمريكا الجنوبية وبلدان العالم الثالث ، على حين تؤثر اوروبا على الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية . وسينجم عن ذلك انقلابات كبيرة تنتصر على أثرها مدرستان فكريتان ، تتلاءم أولاهما مع متطلبات الشعوب المتخلفة ، وتتلاءم الثانية مع مصاعب العالم المتقدم . ولا تلبث هاتان المدرستان ان تتصارعا عاجلا أم آجلا .

وترى الفرضية المحتملة الثانية ان الميول الثورية ستؤدي الى ولادة **رد فعل عالمي مضاد للثورة** . ويمكن لرد الفعل هذا أن يظهر ويتطور في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بشكلين مختلفين : أولهما فاشي ولكنه ذو طابع ديموقراطي ، والثاني ستاليني يشمل أوروبا كليا أو جزئيا ،

ويحتمل أن يشمل أفريقيا الجنوبية أيضا . وسيؤدي تحالفهما العملي تحت لواء أيديولوجيات متباينة جدا الى ظهور تناقضات أساسية وتنافس كبير . ولا تؤدي مثل هذه الحركة الدفاعية البحته الا الى نتائج مؤخرة .

ويمكن للعالم حسب الفرضية المحتملة الثالثة أن يشهد **نمو حركة اصلاحية بناءة** . وقد تنطلق هذه الحركة من أوروبا الوسطى أو الغربية ، وتكتسح الاتحاد السوفييتي ، وقد تمتد الى الولايات المتحدة نفسها . فتجرد الاندفاعات الثورية من سلاحها ، عن طريق بناء وضع جديد يتلاءم مع المتطلبات الملحة بشكل أفضل . وهذا هو الميل المتوسط الذي يرتسم – بشكل بسيط اولي – في فرنسا واوروبا الوسطى ، ويتطلب مجموعة من الافكار الجديدة التي لا بد من تحديدها .

ولا تستبعد هذه الفرضيات المحتملة بعضها بعضا . ويمكن لها أن تتعاقب . وقد نشهد مرحلة أولية من الحمى الثورية التي يتبعها رد فعل مضاد للثورة ، يؤدي الى مرحلة اصلاحية بناءة ، وقد تبدأ التحولات برد فعل مضاد للثورة ، ويشهد العالم فترة اضطرابات يدخل بعدها في مرحلة بناءة . وقد تأتي هذه المرحلة البناءة في البداية (وهو أمر قليل الاحتمال) وتسمح بتوفير مرحلة الاضطرابات .

ويمكن للفرضيات المحتملة أن تقع بآن واحد وتتطور بحدة متباينة في مختلف بقاع الارض . وقد نرى مثلا اوروبا الوسطى والغربية تعيشان وسط تحول ثوري ، وتسحبان معهما جزءا من العالم الثالث على حين تحاول الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي الحفاظ على **الوضع القائم السابق** . وقد تتطور المرحلة البناءة في منطقة

تتعارض مع مناطق اخرى بعضها ثوري والبعض الآخر رجعي.

وامام كل هذه الاحتمالات ، يبدو أن من واجبنا دفع تحليل التطور المقبل الى مدى أبعد ، بغية تحديد المراحل الرئيسية المحتملة . وهذا ما سنحاول القيام به في الفصل التالي .

الفصل الخامس

الفرضيات المحتملة للازمة الثورية

يؤكد التحليل الذي أجريناه في الفصل السابق على وجود ثماني أو تسع بؤر اضطراب أساسية يمكن لكل واحدة منها أن تمر في واحدة أو أكثر من المراحل الاربع التالية : التفتت ، الفوضى الثورية ، رد الفعل السلبي ،رد الفعل البناء . وهذا ما يعطينا ٣٦ احتمالا قد تتوافق في أشكال مختلفة وفي عدد من البؤر التسع المذكورة ، الامر الذي يؤدي الى عدد كبير من التوقعات والحلول . ولذا لا بد لنا من تبسيط الامور .

والحقيقة أن بوسعنا الاقلال من عدد بؤرالاضطراب ، لان البؤر الوحيدة القادرة على خلق آثار ونتائج عالمية هي الصين ،وأوروبا (الوسطىوالغربية) ، والاتحادالسوفييتي، والولايات المتحدة الامريكية . ويجدر بالذكر أنني لم أذكر في تحليلي الخاص ببناء الحاضر وفق معطيات المستقبل الذي وضعته في عام ١٩٦٧ عندما نشرت كتاب ((**بناء المستقبل**)) سوى ثلاث قوى أساسية في سير الاحداث العالمية وهي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي ، والصين . ولقد اعتبرت أوروبا الغربية آنذاك عاملا ثانويا كاليابان والبلدان العربية . ثم برهنت احداث مايو (أيار) عام ١٩٦٨ على الضجةالعالمية التي يمكن أنتاخذها اضطرابات محلية تجري في فرنسا .و كان الامر مماثلا بالنسبة

للانتفاضةالتشيكية . ولذا فانني أعتقد أن التأثير الايديولوجي الذي تتمتع به أوروبا يعطيها من **وجهة النظر الثورية** مكانة من الدرجة الاولى . ولذا فان بوسعنا محاولة محاكمة الحلول المحتملة المتلائمة مع هذه القوى الاساسية الاربع بغية تحديد المواقف الرئيسية الكبرى وتطوراتها .

ولن أدخل هنا في جميع تعقيدات هذه المجموعة الكبيرة من المواقف والاوضاع التي يبدو لي بعضها غير ممكن الى حد بعيد ، ويمكن استبعاده منذ البداية. وسأكتفي بالاستنتاجات المتعلقة بأكثر الاحداث احتمالا . وينجم عن ذلك خمسة احتمالات أساسية ، يضم كل واحد منها عددا من الحالات الممكنة .

الاحتمال الاول ـ تبدأ مرحلة الاصلاحات البناءة قبل أية مرحلة من مراحل الاضطراب الكبيرة في أوروبا أو في أمريكا .

المرحلة الاولى : يتابع التفتت الحالي مساره ، على حين تتشكل حركة اصلاحية واسعة في أوربا الوسطى ، ويحاول الاتحاد السوفييتي مجابهة هذه الحركة بتصلب ستاليني جديد ، يؤدي الى توتر بين الشرق والغرب .

المرحلة الثانية : وامام ظهور الخطر الستاليني الجديد الذي يرافقه خطر ثوري ، يظهر في الغرب رد فعل عام تقريبا يتسم بالتصلب والدفاع .

وتنزلق الولايات المتحدة الامريكية نحو فاشية جديدة مضادة للشيوعية ، وتحاول أوروبا التصرف وفق الموقف الديغولي ضد « المشروع الثوري » ، مع محاولة القيام ببعض الاصلاحات .

المرحلة الثالثة : تظهر صيغة بناءة في أوروبا . ولا تؤدي هذه الصيغة بالضرورة مجابهة مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .

المرحلة الرابعة : يمتد الاصلاح الاوروبي حتى يشمل الاتحاد السوفييتي .

المرحلة الخامسة : تلتحق الولايات المتحدة بدورها بالصيغة الاوروبية .

الاحتمال الثاني ـ يبدأ البناء بعد مرحلة اضطراب في الاتحاد السوفييتي .

المرحلتان الاولى والثانية : كمثيلتيهما في الاحتمال الاول .

المرحلة الثالثة : يشمل الاضطراب الاتحاد السوفييتي قبل غيره تحت تأثير التطور الليبرالي للاشتراكية في أوروبا الوسطى ، ثم يتطور هذا الاضطراب الى ثورة من نوع جديد. ومن المؤكد أن فترة الازمة الروسية الداخلية ستشهد تضاؤل تأثير الاتحاد السوفييتي على التطورات الجارية في الدول التي كانت سائرة من قبل في فلكه ، وعلى تقاربها مع أوروبا الغربية .

المرحلة الرابعة : تسبب هذه الثورة الروسية صدمة نفسية في أوروبا ينجم عنها وضع صيغة بناءة جديدة تتلاءم مع المتطلبات الخاصة بالبلدان الغربية ، على حين تستقر الثورة الروسية وسط شيء من الليبرالية تعترف لمختلف قوميات الاتحاد السوفييتي باستقلال حقيقي .

ويمكن ان يتحقق في هذه الحالة نوع من التوحيد يضم كافة دول أوروبا الجغرافية .

المرحلة الخامسة : تمتد مبادىء الاصلاح الاوروبي حتى تصل الى الولايات المتحدة الامريكية .

الاحتمال الثالث – يأتي البناء بعد مرحلة من الاضطراب تسود أوروبا الغربية .

المرحلتان الاولى والثانية : كمثيلتيهما في الاحتمال الاول .

المرحلة الثالثة : يصيب الاضطراب أوروبا قبل غيرها تحت تأثير العوامل الداخلية الخاصة (أزمة اقتصادية ، فشل الاصلاح الاولي ، اختفاء الزعماء العظام ، الخ) وتحت ضغط التطور الثوري القائم في أوروبا الوسطى . وتلتقي أوروبا الغربية في هذه الحالة مع الصين ، وتؤثران بعمق معا على بلدان العالم الثالث في أفريقيا وأمريكا الجنوبية .

المرحلة الرابعة : ينجم عن ذلك تعارض مع الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتي بصورة خاصة . وفي هذه الحالة ، تكون المجابهة العسكرية بين أوروبا الثورية والاتحاد السوفييتي ممكنة في أوروبا الوسطى ، وتكون نتائج هذه المجابهة خطيرة الى حد ما .

كما ينجم عن ذلك ايضا مجابهة خطيرة داخل أوروبا بين الشعوب الثورية والشعوب المحافظة . وقد يتدخل كل من الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة بهذه المجابهة بشكل مباشر أو غير مباشر .

المرحلة الخامسة : تظهر صيغة بناءة في أوروبا الغربية تجتاح المنطقة الثورية رويدا رويدا ، ثم تمتد بعد ذلك الى الولايات المتحدة الامريكية نفسها .

الاحتمال الرابع – يأتي البناء بعد مرحلة ثورية في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الغربية .

المراحل الاولى والثانية والثالثة : كمثيلتها في الاحتمال الثاني وتبدأ الثورة في الاتحاد السوفييتي واوروبا الغربية.

المرحلة الرابعة : تنضم اوروبا الغربية كليا او جزئيا الى الحركة الثورية الروسية التي تعارضها الولايات المتحدة الامريكية ، والبلدان الاوروبية التي تحافظ على رجعيتها .

وتنجم عن ذلك احتمالات مجابهة عالمية خطيرة جدا ، وقد تسفر عن نتائج عسكرية هامة في أوروبا نفسها . وبوسعنا أن نفكر هنا ، بأن تضافر تأثيرات أمريكا اللاتينية (عقب أخيل الولايات المتحدة) ووجود القوة النووية السوفييتية ، قد يدفع الولايات المتحدة الى عدم التدخل في أوروبا .

المرحلة الخامسة : وتؤدي الصيغة الثورية الروسية التي تتبناها أوروبا الغربية الى مرحلة من الاصلاحات البناءة التي لا تلبث أن تنتقل الى الولايات المتحدة الامريكية .

الاحتمال الخامس ــ البناء بعد مرحلة طويلة من الاضطراب العالمي .

المراحل الاولى والثانية والثالثة : كمثيلتها في الاحتمال الثالث . وتبدأ الثورة في أوروبا الغربية .

ينجم عن ذلك تعارض داخل أوروبا ، وتعارض بين أوروبا الثورية والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . ويؤدي كل ذلك الى صراع عسكري عنيف في أوروبا .

المرحلة الخامسة : وتمتد الثورة من جراء هذا الصراع فتشمل الاتحاد السوفييتي الذي ينضم الى المعسكر الاوروبي . وتجد الولايات المتحدة أنها مضطرة للتدخل في أوروبا رغم جميع مشاغلها الامريكية . ويكون خط الفصل بين العالمين المتصارعين مارا من المحيط الاطلنطي .

المرحلة السادسة : تنتقل الثورة الى الولايات المتحدة التي تشهد اضطرابات جد خطيرة ناجمة عن مشكلةالزنوج. وينتقل الاضطراب الى العالم الثالث ، وتتعرض اسرائيل وجنوب افريقيا للهجوم .

المرحلة السابعة : تظهر صيغة بناءة ـ ومن المحتمل ان يبدأ ظهورها في أوروبا ـ ثم تمتد بسرعة متفاوتة كبقعة من الزيت لتشمل كل بلدان العالم .

ان هذه الاحتمالات الخمسة الموجزة في الجدول التالي تتلاءم مع فكرة تأكيد وجود درجات متعاقبة من الاخطار المتزايدة . وأقل الاخطار حدة هي ما يمكن ان ينجم عن الاحتمال رقم ١ الذي تظهر المرحلة الاصلاحية فيه خلال فترة الصعوبات والتوترات ، وقبل اندلاع الاضطرابات الخطيرة . ويتسم هذا الاحتمال بقسط كبير من التفاؤل ، ولا بد لنا من الاعتراف بقلةاحتمال وقوعه . ويمثل الاحتمالان الثاني والثالث حالتي الاضطرابات المحدودة في الزمان والمكان ، ولكننا وجدنا أن من واجبنا ان نميز الحالة التي تبدأ اضطراباتها في الاتحاد السوفييتي ، عن الحالةالتي تضطرب فيها أوروبا الغربية اولا . فاذا بدات الاضطرابات بالاتحاد السوفييتي فتح ذلك الامر امكانات هامة امامتوحيد اوروبا ، على حين ان ابتداء الاضطرابات في اوروبا قد يؤدي الى وقوع أخطار ازمة عسكرية في اوروبا وخاصة اذا حافظ الاتحاد السوفييتي على طابعه الستاليني . ولكننا نلاحظ هنا ان هــذه الازمة لن تذهب الى حدود النزاع المكشوف . وتكمن اسوأ الاخطار والنتائج في الاحتماليين الرابع والخامس . ومع هذا فان الاحتمال الرابع الذي تنطلق الثورة فيه من الاتحاد السوفييتي ثم تشمل أوروبا

الغربية يحمل في طياته فرص الاستقرار بفضل القيمة الرادعة للقوة النووية الروسية . والاحتمال الخامس عبارة عن كارثة شاملة تؤدي الى صراع بين الدول الاوروبية ، يليه صراع بين اوروبا والولايات المتحدة الامريكية ، وثورة عالمية ، قبل أن تبدأ المرحلة البناءة بالظهور .

وتبدو هذه الاحتمالات الخمس للمرة الأولى متميزة الى حد ما ورائعة ومتفائلة بآن واحد . ويجد الكثيرون أن من التفاؤل « أن ينتهي كل شيء بصورة جيدة » وأن تكون الصيغة النهائية منبثقة دائما عن اصل أوروبي . والحقيقة أن الثورة لا يمكن أن تنتهي الا بالبناء تماما كما تنتهي الحرب دائما بالسلم . ويكمن التفاؤل في الاعتقاد بأن البناء الذي سينجم عن الازمة سيكون جيدا بالضرورة ... ويبدو لنا أن الاصل الاوروبي للبناء أمر معقول الى حد بعيد نظرا لان أوروبا هي ساحة التناقضات الاساسية ، كما أنها أكثر القارات تطورا من الناحية الثقافية . ويتعذر علينا أن نتوقع ظهور حل صيني أو سوفييتي . كما أن احتمال ظهور حل أمريكي المنشأ أمر اقل حظا .

أما الاختيار التحكمي الذي يظهر في البداية سائدا في هذه الاحتمالات الخمسة ، فانه نابع من فكرة ضرورة تبسيط الحالات المحتملة الى أبعد حد ممكن . ان الثورة في الصين مندلعة ، على حين تبدو الولايات المتحدة مستقرة نسبيا . لذا فليس هناك سوى مخرجين ممكنين هما : الاتحاد السوفييتي واوروبا . فاذا ما اندلعت الثورة في أوروبا قبل غيرها تحقق لقاء محتمل مع الصين ، وهو لقاء يثير القلق الى حد ما ، ويمكن ان يؤدي الى ثورة عامة تشمل العالم اجمع . كما ان ولادة الثورة الجديدة من وسط ليبرالي ذي

جـدول الاحتمالات المختلفة

	الاول	الثـاني	الثـالث	الرابـــع	الخامس
	اصلاحات قبل اية مرحلــة اضطرابات هامة في اوروبا او امريكا .	البناء بعد مرحلة اضطراب في الاتحاد السوفييتي	البناء بعد مرحلة اضطراب في اوروبا الغربيـــة	البناء بعد مرحلة ثورية في الاتحاد السوفييتي واوروبا الغربيـــة .	البناء بعـد مرحلة طويلة مـن الاضطراب العالمي .
١	تفتت عام ، ورد فعل سلبي نسبيا				
٢ ٣	مرحلة اصلاحات بناءة في اوروبا	ظهور اتحاد سوفييتي ثوري . انهيار سيطرة الاتحاد السوفيتـي .	ظهور اوروبا غربية ثورية ± مرتبطة مع الصين	ظهور اتحاد سوفييتي ثوري . انهـار سيطرة الاتحــاد السوفييتي .	ظهور اوروبا غربية ثورية . ± مرتبطة مع الصين .
٤	اصلاحات بناءة في الاتحـاد السوفييتي .	صيغة بناءة في اوروبا الغربيـة توحيد اوروبا .	اوروبا + الصين تتعارضان مع الولايات المتحـــدة + الاتحاد السوفييتي .	اوروبا الغربيـة الموحدة + الاتحاد السوفييتي يتعارضان مع الولايات المتحـــدة .	صراع في اوروبا مع الاتحـاد السوفييتي ومع الولايات المتحـــدة .
٥ ٦	اصلاحات بناءة في الولايات المتحـــدة .	اصلاحات بناءة في الولايات المتحـــدة .	اصلاحات بناءة في الولايات المتحدة واوروبا .	اصلاحات بناءة في اوروبـا والاتحاد السوفييتي تليهـا اصلاحات مماثلـــة في الولايات المتحـدة .	ثورة في الاتحاد السوفييتي . يقف الاتحاد السوفييتي + اوروبا + الصين ضد الولايات المتحـدة
٦					ثورة في امريكا اللاتينية .
٧					مرحلة بناءة .

ميول فوضوية واضحة يجعل نظريات هذه الثورةوأساليبها متأثرة بالميول الفوضوية الى حد بعيد . ولا يتم البناءالنهائي المحتوم الا بصورة متأخرةوخاصة فياوروبا . اما اذا اندلعت الثورة في الاتحاد السوفييتي قبل اوروبا ، وكانت موجهة ضد الماركسية ـ اللينينية ، فان من المحتمل أن تكونعقيدة هذه الثورة وأساليبها أشد وضوحا ، وستكون قادرة على بدء البناء بسرعة أكبر . وقد يقع هذا قبل انقلاب أوروبا أو بعده ، ومن هنا يأتي الاحتمال الثاني .

ولكننا نلاحظ أيضا أن كافة الاحتمالات باستثناء الاحتمال الاول تتضمن مرحلة صراع ممكن . وهذا أمر نابع من طبيعة الاشياء : ان وجود أنظمة سياسية متعارضة خلال المرحلة الثورية يؤدي غالبا الى مثل هذه الصراعات التي تكون في الغالب طويلة باهظة التكاليف . ومن المؤكد ان هذا التوقع كبير الخطورة ، لانه في اللحظة التي يخفت فيها التعارض بين الشروق والغروب تولد أسباب جديدة للمجابهة . وسندرس هذه المعضلة الهامة في الفصلالقادم.
ولقد لاحظنا أن أربعة من هذه الاحتمالات تتضمن فرضيات ازمة ثورية متباينة الاخطار : ان بدء الاضطرابات في الاتحاد السوفييتي هو أقل الاحتمالات خطورة من الناحيةالثورية، كما انه أقلها قدرة على تحطيم التوازن القائم بين القطبين الكبيرين في عالمنا الحالي ، أما بدء الاضطرابات في أوروبا فهو أخطر من الناحية الثورية بشكل لا يدع مجالا للشك ، كما انه اشد خطورة ايضا من الناحية الاستراتيجية ، كما سنرى ذلك فيما بعد . وهناك بدء الاضطرابات في أوروبا ثم في الاتحاد السوفييتي ، وتطورها بسرعة أكبر بشكل يسمح باعادة التوازن النووي الذي يتحطم في البداية .

والحل الأمثل هو التطور البناء الذي ينطلق من اوروبا بصورة وقائية . ولا شك أن هذه الصيغ تضم عددا كبيرا من الحالات المحتملة المختلفة . وقد تؤدي المجابهة العسكرية المحتملة الى أحداث هامة متباينة الى حد بعيد . وأخيرا فان التحدث عن « أوروبا » بشكل عام عبارة عن تبسيط فيه كثير من المبالغة : اذ تختلف الثورة « الاوروبية » اختلافا كبيرا حسب انطلاقها من بريطانيا العظمى أو هولندا أو اسبانيا أو ايطاليا أو أوروبا الوسطى . ولم نذكر دور الشرق الاوسط والعالم الثالث ومشاركتهما الا بصورة موجزة حتى لا نسبب تعقيد المخططات التي عملنا على تبسيطها . وقد تشمل كلمة « ثورة » ظواهر مختلفة جدا : بدءا من الانتفاضة المسلحة الدامية وانتهاء بالانقلاب السلمي ، ومن اشد عمليات القمع قسوة الى التحولات التي تتم دون استخدام اية أداة فعالة من أدوات القمع والقهر .

والامر المؤكد حتما هو تبدل النظام الحالي . ولكن هذا يتم وفق طرق شديدة الاختلاف حسب الملابسات ، والمقاومات والظروف العامة كلها . وقد يتم في مدد زمنية متباينة ، بعد فترات طويلة من التفتت والنضج . ومن المعروف ان الثورة الفرنسية لم تحقق اهدافها المعلنة في فرنسا الا بعد اكثر من مائة عام . واحتاجت الثورة الروسية لثلاثين عاما وحربين عالميتين قبل انشاء امبراطوريتها « على نصف الكرة الارضية » كما يقول توكفيل ، ويبدو انها ستفقد هذه الامبراطورية خلال السنوات الثلاثين المقبلة .

ولا تخضع الحقيقة بصورة كاملة ولا شك لأي مخطط من المخططات التي قدمتها . ولكن هذه المخططات تسمح بفهم أفضل لتسلسل الاحداث التي ستحدد مستقبلنا دون ريب .

الفصل السادس

الطبيعة المحتملة للازمات الثورية والصراعات

تستطيع التوقعات المقلقة التي أتينا على ذكرها تغطية حقائق متباينة كل التباين كما أشرت الى ذلك في نهاية الفصل السابق . لذا فان من الضروري وصفها بدقة أكبر اذا كان ذلك ممكنا . ولكنه يبدو أن التطور النفسي والتقني يخلقان في الازمات الثورية الداخلية أو في الصراعات العالمية شروطا جد قاهرة تجعلنا نعتقد بأنها تفرض أسلوبا جديدا يختلف اختلافا بينا عن أسلوب الازمات الثورية والصراعات السابقة .

الردع المعنوي :

ان الظاهرة المركزية التي نلاحظها اليوم هي تطور الردع المعنوي ، أي تطور الكوابح المعنوية القوية الميالة الى تحديد حقل عمل القوى وتضييقه الى أبعد الحدود .

وترجع هذه الظاهرة ولا شك الى رد الفعل ازاء مبالغات وتطرفات الحرب العالمية الثانية ، حيث كشف النازيون واليابانيون بأن استخدام القوة الى أبعد مدى عمل لا أخلاقي ، ولا يقود في النهاية الى حسم عملي . ولقد نجم عن ذلك وعي واضح بضرورة احترام شيء من الانسانية ، حتى في أشد الازمات خطورة . ان هذا الوعي الذي يمكن

ان يختفي في المستقبل وسط قمة الصراع ، مدعوم اليوم بوجود السلاح الذري الذي تبدو نتائجه الكارثوية واضحة امام الجميع ، وتدفع إلى أكبر قسط من الحذر . وتجري الامور بصورة عامة ، وكأن الانسانية قد تعرضت لتطور أخلاقي يستبعد اليوم استخدام الوسائط التي كانت البلاد المتحضرة تعتبرها في بداية العصر وسائط عادية لا مانع من استخدامها .

ولكن هذا يتطلب أن تجري الازمات والصراعات وفق شكل انساني حقا . أما عمليات القمع الضرورية دائما ، والتي رأينا الاتحاد السوفييتي وهو يستخدمها بأشكالها العسكرية في تشيكوسلوفاكيا ، فستستخدم في المستقبل بأساليب غير مباشرة ، أكثر مهارة واشد خبثا ومكرا . وسيتم تنفيذها بسيوف مثلومة غير جارحة ، ولكن دون أي قسط من الفروسية . ويبدو أن الاخضاع النفسي الذي كان المتخاصمون يحققونه بعد قهر الخصم عسكريا ، قد غدا اليوم ممكنا بفضل أعمال تتسم بكثير من الدجل والخداع . واذا كان الدم يسيل اليوم في المعارك والثورات بصورة أقل من الماضي ، فان الآلام الفردية باقية على حالها . وتأتي المجاعات ، كما حصل في بياقرا ، لتحل محل المذابح الدموية القديمة .

وتميل ظاهرة الردع المعنوي الى طبع الازمات الداخلية والخارجية بطابع خاص لا بد لنا من تحليله .

طبيعة الازمات الداخلية :

لا تتمثل الازمات الداخلية التي تشهدها البلاد المتقدمة في الوقت الحاضر بمجابهة بين طبقتين اجتماعيتين تضطهد

احداهما الثانية المحرومة من كل شيء . ولا يظهر هذا النوع من الصراع الا في البلاد المتخلفة وخاصة في امريكا الجنوبية، بالاضافة الى ظهوره في الولايات المتحدة الامريكية بالنسبة للزنوج . ولقد أعطى التطور الاقتصادي للبروليتاريا في نصف الكرة الشمالي (*) مستوى حياتيا لا يصل بها الى حد البؤس . ولم يعد في هذه المنطقة من العالم سوى بعض الجزيرات الصغيرة التي تضم يدا عاملة أجنبية تعيش في ظروف أحرج ، هي أقرب ما تكون للحياة القديمة التي عرفها « معذبو الارض » . فاذا لم تتزايد هذه الجزيرات بشكل مبالغ به ، كما تزايدت من قبل في روما خلال عصر الانحطاط ، فان الازمات الداخلية تميل الى فقدان طبيعتها كصراع طبقي، تلك الطبيعة التي عرفتها ثورات الماضي ، كما تميل نحو التحول الى **تبديل المجموعات** القيادة بشكل عنيف وغير شرعي الى حد ما . وهذا يعني أنها ستكون أقرب للانقلاب منها للعصيان .

التقنيات الجديدة للانقلاب : الحرب الاهلية الباردة :

ان مسألة الانقلاب أقل بساطة مما كان يعتقده المنظرون في بداية هذا القرن من أمثال سوريل . ولقد وضع السوفييت والنازيون من بعدهم تقنيات بدت عند استخدامها فعالة مؤثرة : كالاستيلاء على النقاط الحساسة ، واعتقال الكوادر المعادية ، واعلان قيام نظام جديد . وتتمثل نقطة ضعف هذه التقنيات في افتراض سلبية الجماهير وعدم ردها على

(*) ـ يستثنى من ذلك الولايات المتحدة الامريكية التي يمثل الزنوج فيها الطبقة غير المتلائمة مع الوضع العام ، والمسحوقة بالتالي (المؤلف) .

الانقلاب ، وتأييد الشرطة والقوات العسكرية في كافة ارجاء البلاد . والحقيقة ان الامر مخالف لذلك ، فلقد احتاج النظام الجديد المركزي في الاتحاد السوفييتي لسنوات طويلة من الحرب الاهلية قبل أن يتوصل الى تصفية المقاومات التي ظهرت ضده . ويتعلق نجاح الانقلاب في نهاية المطاف بتأييد الجماهير . وقد يستقبل سقوط نظام لا يتمتع بالشعبية بشيء من السلبية ، ولكن اقامة نظام جديد يقلق الجماهير بمبالغاته وعنفه ومطالبه التي لا تحتمل ، تؤدي الى ولادة مقاومة خطيرة جدا . ولم يعد لاحتلال الاذاعة والمباني الحكومية على ما يبدو سوى تأثير مؤقت .

والمهم هنا اذن القيام باعداد البلاد **نفسيا** . ويتطلب كل اعداد نفسي فترة طويلة من الزمن . ولقد اكتمل هذا الاعداد الان في كل مكان ، او انه في طريقه الى الاكتمال . ونجم كل ذلك في الغرب من النضج الذي سببته الصحافة والسينما واغلبها تقدمية ، كما نجم في الاتحاد السوفييتي عن حركة أفكار المثقفين والشبيبة . ولا بد هنا من استغلال هذا النضج عن طريق القيام بأحداث مؤثرة .

ولقد دلت احداث مايو (ايار) ١٩٦٨ في فرنسا ،على ان من الممكن والسهل تجريد السلطات العامة من هيبتها التقليدية ، الامر الذي يؤدي الى استقطاب عدد من المؤيدين الذين وقفوا من قبل موقف الحياد . وكانت الطريقة الفعالة المستخدمة تتلخص في القيام بمظاهرات صغيرة **لاستثارة** السلطات ودفعها للبدء بعمليات قمع ، وشن حملة دعاية موجهة **لاقناع** السلطات بتطوير هذا القمع وتصعيده . وبما اننا لا نعيش في عام ١٨٤٨ ونظرا للصعوبة البالغة التي تعترض استخدام الاسلحة ضد الجماهير ، والقيام بعمليات

اعتقال واسعة فقد جرت الازمة على شكل **حرب اهلية باردة** كما أسماها اندريه فونتين – وهي الشكل الحديث للصراعات الداخلية . ويلاحظ ان المتمردين قاموا بأعمال مظهرية لا تتسم بالعنف الدموي ، واكتفت سلطات النظام باستخدام اعمال قمع خفيفة جدا . وكان كل طرف من الطرفين يعتبر العملية لعبة جد متحضرة . ولكن حرب العصابات المدنية هذه أدت الى تدمير الهيبة الحكومية ومعنويات رجال الشرطة بصورة متدرجة . ولو طال أمد العصيان ، ولم تأخذ الحركة الثورية شكلا جنونيا فصلها عن الجماهير ، لأدى انقلاب معنويات رجال الشرطة او استسلامهم المعنوي الى تحقيق الحسم .

ولقد استطعنا خلال هذه الازمة معرفة تأثير **الاضراب العام** وحدوده . وهنا أيضا ظهر ان تطبيق الاساليب العنيفة القصوى التي عرفت في الماضي امر غير ممكن في مجتمع معقد كمجتمعنا ، حيث تتشابك مصالح العمال المضربين بعضها بشكل وثيق . وادت **الا**ضرابات رغم شكلها المخفف الى الحاق الاضرار بالجميع ، وكانت هذه الاضرار سببا من اسباب رد الفعل الجماهيري السلبي الذي ظهر خلال الانتخابات . وسيكون الاضراب العام في حالة وقوعه انتحارا ، و « الاضراب – حرب العصابات » هو الشكل الوحيد الممكن الآن .

واذا ما وسعنا حقل ملاحظاتنا اكتشفنا الظاهرة نفسها في كل مكان : فلقد تمت الثورة في تشيكوسلوفاكيا بدون ضحايا . وحاول القمع السوفييتي ان يبدي شيئا من الإعتدال . ولم تؤد « الثورة الثقافية » في الصين الا الى بعض المجابهات المحلية . ولا يزال ليو تشاو تشي الخصم الاكبر لماو يتمتع بحريته ، وكان يعيش حتى الامس في قصر

يجاور قصر ماو في المنطقة المحرمة . والحركات اليوم أبعد ما تكون عن المذابح التي شهدتها الثورة الروسية ، او القمع العنيف في بودابست ، والتي أثبتت الاحداث عدم صلاحيتها في براغ . وهكذا فالردع المعنوي كبير جدا . ويبدو ان على الاعمال الثورية ان تجري مع ضبط متبادل للعنف المادي ، شريطة ان يتم كل شيء وسط مناخ نفسي حماسي مفعم بالخداع ، علما بأن وسائل الاعلام الحديثة تسمح بخلق هذا المناخ .

السلاح الكيماوي في الحرب الاهلية :

هنا لا بد لنا من ان نذكر بأننا قد نكون على عتبة تحولات كبيرة في التقنيات الثورية والمضادة للثورة بسبب تطور استخدام وسائل الصراع الكيماوية . ونحن لا نعرف اليوم الا النماذج الاولية للاسلحة الشالة للارادة : كالغازات المسيلة للدموع . وهي مفيدة للاقلال من سفك الدماء، ولكن فعاليتها تبقى محدودة . ويوجد في المختبرات غازات قادرة على تحقيق فاعلية كاملة : كالغازات التي تنوم الخصم بصورة مؤقتة ، اوتحرمه من كل فاعلية او كل قدرة على القتال . ونحن نعرف ان مروضي الحيوانات المفترسة يستخدمون سهاما صغيرة قادرة على تهدئة الاسود الهائجة! ان كل هذه الاسلحة المدروسة جيدا في الولايات المتحدة، والتي قد تكون مدروسة بالدقة نفسها في الاتحاد السوفييتي ، هامة جدا ، وقد تظهر ما بين لحظة واخرى فتسمح بتحقيق المفاجأة والوصول بذلك الى نتائج هامة مع اقل كمية ممكنة من « الخسائر » وهذا ما يتلاءم كل التلاؤم مع الميول الانسانية الحالية . ولا شك ان ما يؤخر استخدامها حتى

الآن هو اهميتها العسكرية ، والرغبة بالحفاظ عليها بغية تحقيق المفاجأة بها في حالة نشوب الحرب . بالاضافة الى الخوف من احتمال اصابة الخصم بها بنسبة كبيرة تؤدي الى وفاته ، الامر الذي سيجعلها غير قابلة للاستخدام . ومن المحتمل الا نرى هذه الاسلحة ابدا ...

استنتاج :

ان حساسية الراي العام ، وهشاشة الاقتصاد ، وامتناع الحكام عن استخدام القوة ، وماكيافيلية الثوريين ، والاسلحة الحديثة المنتظرة ، تميل كلها الى اعطاء الازمات الداخلية صبغة العنف المكبوت ، وتجعل منها عمليات يتم التفكير بها واعدادها بعناية بغية الوصول الى نتيجة نفسية محددة هي : اكتساب الجماهير او دفعها نحو السلبية . وتحت رداء من الرومانسية الظاهرية المعدة لاستثارة حماس الجماهير ، تبدأ لعبة حامية خاضعة للحساب الدقيق ، تقوم بها التنظيمات الثورية ، والنخبة المحدودة التي تقود أحداثا تبدو وكأنها صدفية غير منتظرة . وتقف الحكومة في هذه الحالة أمام معضلة ثنائية صعبة : فأما ان تقطع الجسور مع الثوريين بعنف وتبدأ بضربهم ، او تتعرض هيبتها للدمار. ولا يمكنها ان تخطىء في هذا المجال اية خطيئة . ويدفعها الحذر في بداية الامر الى « التساهل والانتظار » . ولكن الحركة تمتد، وتنتهي الى خلق مواقف خطرة لا يمكن تعديلها. وعندها تندم الحكومة لانها لم تتصرف بعنف منذ البداية ، او لأنها لم تلجأ الى عنف مسبق وقائي . لان السيطرة على الاحداث تضيع في الظاهرة الثورية بسرعة كبيرة . ويكون الثوريون الاوائل اول ضحايا هذا الضياع . فهم لا يحققون

احلامهم ، ولكنهم يصلون الى اول اهدافهم وهو : اشعال النار في البارود ، وتحطيم النظام القائم .

وتأتي بعد ذلك ، وعبر عدد من التجارب ، مجموعات تؤمن استتاب النظام وتبدأ بناء نظام جديد مستقر .عندها تنتهي الثورة .

صفات الصراعات الخارجية .

الصفات العامة للصراعات الحالية :

وبهذا نكون قد وصلنا الى مفهوم واضح الى حد ما ـ رغم كونه مبنيا جزئيا على الافتراض ـ عن الاشكال التي يمكن ان تأخذها الصراعات في العصر النووي . ويلعب الردع النووي كل دوره في المناطق الجغرافية التي توجد فيها مصالح كبيرة تهم الدول النووية . ولا يمكن حل الصراعات في هذه المناطق عن طريق مجابهات عسكرية مباشرة . والمجابهات العسكرية ممكنة في المناطق الجغرافية التيتكون مصالح الدول النووية فيها ثانوية . ولكن هذه المجابهات لا تتم بين الدول النووية نفسها خوفا من الوقوع في خطر التصعيد . فاذا ما وجدت دولة نووية نفسها مشتبكة في صراع عسكري داخل هذه المنطقة (كما هي حالة الولايات المتحدة في فيتنام) ، فان خصومها يقاتلونها بشكل غير مباشر وعن طريق شخص ثالث ، مع ارسال مساعدات مالية، واسلحة ، ومتطوعين اذا لزم الامر . وينجم عن هذهالصفات الجغرافية المتعارضة ان الصراعات بين الدول النووية تميل الى الحل بصورة غير مباشرة ، عن طريق مجابهات عسكرية مباشرة تتم في مناطق يفقد الردع النووي فيها قوته .

وتؤدي هذه المجابهات المباشرة التي تأخذ في بعض الاحيان شكلا عسكريا عنيفا ـ كما هي الحالة في فيتنام والشرق الاوسط ـ الى استخدام الاساليب الثورية على نطاق واسع . وهذا ما يعطي الصراعات طبيعة **سياسية ـ عسكرية** تبدو عامة شاملة في عصرنا . وهكذا تبدو المفاهيم العسكرية البحتة في هذا المجال مفاهيم قديمة زال أوانها .

ولكن علينا ان نشير الى ان هذا المفهوم العام الناجم عن مراقبة الاحداث خلال السنوات العشرين الاخيرة لا يسمح لنا باجراء استنتاجات مؤكدة حول الاشكال التي يمكن ان تأخذها الصراعات النووية ، اذا كانت هذه الصراعات ممكنة، الامر الذي يشك به الكثيرون . ان الصراع النووي المدفوع الى الحد الاقصى مستحيل حتما ، الا في حالات محدودة يصعب وقوعها (كتفوق احد الخصمين بشكل كامل ، او حياد القوى الثالثة) . ويمكننا ان ننتظر على العكس اعمالا محدودة جدا ، ذات طابع نفسي ، ومعدة لتحقيق ضغط معنوي على زعماء الخصم وجماهيره ، واجبار هذا الخصم على الخضوع والمفاوضة . وستكون هذه الاعمال اقرب الى تكرار مثال هيروشيما وناغازاكي على مدن او على هدف عسكري هام .

فاذا اضفنا كل هذه الاعتبارات ، الى الاعتبارات المذكورة في بداية هذا الفصل والخاصة بالردع المعنوي وصلنا الى الاقتناع بأن العصر التقني المتقدم للاستراتيجية النووية يميل الى التخلي عن مكانه **لاستراتيجية شاملة ذات دوافع نفسية** تستخدم الوسائل السياسية والوسائل العسكرية بآن واحد . ولا تلعب الوسائل العسكرية المحسوبة دائما بدقة وبشكل ضيق سوى دور المساعد للعمل السياسي . وهذا يعني انها استراتيجية غير مباشرة تماما .

تاثير العوامل الثوريـة :

وسنحاول الان ان نستخلص من هذه الاستنتاجات الطبيعة المحتملة للصراعات التي يمكن ان تقع خلال الازمات الثورية الكبيرة التي اتينا على ذكرها في الفصل السابق .

والحقيقة الاولى التي تفرض نفسها هي : ان **الطبيعة المعنوية** ، اي العاطفية لهذه الصراعات ستزداد الى حد بعيد. وسيتشكل بين الخصوم المتنازعين نوع من الازدواجية. وستستخدم الافكار على نطاق واسع . ولن تكون الصراعات بشكل عام بين شعوب كاملة متعادية ، كما كانت الحالة في الحرب العالمية الاولى ، ولكنها ستكون بين احزاب تقسم ابناء الامة نفسها الى « مقاومين » و « متعاونين » ، كما كانت الحالة في البلدان التي خضعت للاحتلال خلال الحرب العالمية الثانية . وستكون بعض هذه الاحزاب مثلا رجعية على حين تكون الاحزاب المعادية لها تقدمية . ولكن الرجعيين والتقدميين سيميلون الى الاعتماد على الاجنبي ، وهذا ما يذكرنا بفرنسا القرن السادس عشر خلال الحروب الدينية . وستشهد المرحلة الاولى للحرب الباردة تزايد التدخلات الماكرة الخفية من كلا الطرفين، وذلك بارسال الاموال ومعدات الدعاية ، والاسلحة ، والعملاء ، بغية التاثير على الوضع الداخلي للدول . والمسألة الاساسية هنا هي ان نعرف الى اي مدى تستطيع هذه المجابهات الداخلية المدعومة الى حد ما من قبل المؤيدين الاجانب ان تؤدي الى صراعات عسكرية مع الدول الاجنبية نفسها .

تأثير العامل النووي على الحرب الثورية :

وتصادفنا هنا معضلة كبيرة خاصة **بتأثير الاسلحة النووية خلال الازمات الثورية** . ويبدو قبل كل شيء ان استخدام هذه الاسلحة الهائلة مستبعد منطقيا في الصراعات الداخلية . ولقد رأينا خلال الثورة الثقافية في الصين كيف وقفت سين ـ كيانغ مركز الصناعة العسكرية النووية الصينية على الحياد . ولا تألو الحكومة الموجودة في السلطة جهدا لتأمين السيطرة على القوى النووية ، ولكن وصولها الى ذلك امر غير مؤكد . فاذا ما وقعت بعض الاختلافات والانشقاقات وسط هذه القوى ، واذا ما حصل الثوريون على بعض الاسلحة النووية ، تعرض الثوريون الى اغراء كبير يدفعهم الى الافادة من هذه الاسلحة لتدمير القوى النووية الحكومية. وستحاول الحكومة فيهذه الحالة تدمير الاسلحة النووية المنشقة مستخدمة لذلك الاسلحة التقليدية ، او الاسلحة النووية اذا لزم الامر . ويمكننا ان نشهد في هذه الحالة « حربا صغيرة » نووية داخلية كبيرة الخطورة . وقد تستطيع الثورة اخيرا ان تحقق الانتصار والسيطرة على كافة القوى النووية الوطنية .

وتدل كل هذه الاحتمالات على ان الدول النووية الاجنبية قد تجد نفسها مدفوعة الى التدخل في مثل هذه الصراعات . ويمكن ان يكون تدخلها وقائيا لتدمير القوى النووية في البلاد التي تندلع بها الثورة قبل ان تسقط هذه القوى بيد الثائرين ، كما يمكن ان يتم بعد انتصار الثائرين. وتؤكد لنا احداث مرسى الكبير امكانية وقوع هذه الفرضية.

وليس من الضروري استخدام الاسلحة النووية اذا كان الامر متعلقا بقوة صغيرة . ويكفي في هذه الحالة اللجوء الى الطيران التقليدي ، والمظليين ، والقيام باغارة كبيرة لتحقيق الهدف . وهكذا يمكن ان يبدأ صراع عسكري دولي . اما اذا كانت القوة النووية كبيرة ، كما هي الحالة في الولايات المتحدة او الاتحاد السوفييتي ، فان من المتعذر ايجاد اي حل عملي . نظرا لان البدء بالضرب عاجز عن تأمين التدمير المؤكد الكامل لكل قوى الخصم بشكل يمنعه من الرد ردا مدمرا لا حدود لخطره . وهكذا فليس امام الدول سوى ان تشهد من بعيد « الحرب النووية الصغيرة » الداخلية التي يمكن ان تدور على ارض الولايات المتحدة او الاتحاد السوفييتي ، مع محاولة مساعدة احد الطرفين عن طريق ارسال المعدات بشكل سري اذا كان ذلك ممكنا .

بيد اننا لا نستطيع تجاهل حقيقة مؤكدة هي ان كل مسألة نووية تدخل في الاطار الاجمالي للمجابهة النووية الكبيرة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وتحقق القوتان النوويتان لهاتين الدولتين اليوم توازنا غير متساو ولكنه ثابت جدا ، وتشل كل واحدة منهما الاخرى بصورة متبادلة لانهما **متعارضتان. فاذا ما استطاعتا التحالف بشكل مخلص** ، وهذا امر يصعب تصوره بعد القمع في تشيكوسلوفاكيا ، فان حريتهما النووية ، وحريتهما العسكرية بصورة عامة تغدو اكبر بكثير . وعندها يصبح الردع المعنوي، والاخطار الكبيرة غير القاتلة التي يمكن ان تمثلها القوى النووية الثانوية كقوى فرنسا ، وبريطانيا العظمى ، والصين، الحدود الوحيدة لهذه الحرية . بيد أن العمل الوقائي للقضاء على هذه القوى الثانوية ممكن ومفر الى حد بعيد . ويؤدي عند وقوعه الى تحقيق الاحتكار النووي المزدوج الذي تحاول

سياسة الدولتين الكبيرتين الوصول اليه . ويمكن لقواتهما العسكرية ان تتدخل بتعاون وثيق للقتال ضد الحركات الثورية المعادية لهما . فاذا ما تدخلتا بحزم ، وكان الراي العام فيهما مؤيدا لهذه الحرب ، فان بوسعهما السيطرة وفرض حلولهما في كل مجال . ولكن هذه الحالة الحدية بعيدة الاحتمال : لان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي عبارة عن دولتين مختلفتين كل الاختلاف ، عاشتا فترة طويلة من التعارض والمجابهة ، ولكل واحدة منهمامصالحها المتميزة رغم التقاء هذه المصالح في بعض الحالات . وهذا ما يجعلهما عاجزتين عن العمل كحليفين يثق أحدهما بالآخر ثقة مطلقة . ان خوف كل دولة من هاتين الدولتين من رؤية الدولة الاخرى وهي تحصل على ميزات يمكن ان تحقق لها تفوقا واضحا في المجالات الايديولوجية او السياسية او الاستراتيجية يمنع الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة اذا ما اجتمعا من استغلال قوتهما الساحقة بكل حرية . وسيكون الحذر قائما بينهما باستمرار وستدعم هذا الحذر في الولايات المتحدة ذكريات مرة ، وخداع كبير تعرضت له الولايات المتحدة في يالطة وطهران . وبالاضافة الى ذلك فان الراي العام الوطني في الولايات المتحدة سيكون مختلفا عن الراي العام الوطني في الاتحاد السوفييتي اذا ما كان اصل الصراع ثوريا . وسيؤدي التعارض الى نوع من شلل القرارات قد يصل الى حد النصح بالامتناع عن العمل . ويستطيع الردع النووي القيام بالباقي ، على حين تعد الحركات السياسية الداخلية الافكار وتؤثر عليها . ويمكن ان نعيش عندئذ وضعا مشابها للوضع الذي عرفه الحلفاء في عام ١٩١٨ ازاء الثورة الروسية ، والذي شل تفوقهم المادي

الساحق ، وجعل كل اعمالهم ضد هذه الثورة مقتصرة على محاولات متفرقة لا قيمة لها .

فاذا ما بقيت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في معسكرين متعارضين غدت حرية عملهما العسكري المباشر ضعيفة في المناطق التي تملك هاتان القوتان فيها مصالح حيوية . ويمكنهما في حالة الصراع داخل هذه المناطق اللجوء الى العمل عن طريق شخص ثالث يكون دولة تابعة او حليفة تملك قوة نووية او لا تملك مثل هذه القوة . وعندها يكون الصراع خاضعا للتنافس السوفييتي ـ الامريكي . فاذا ما وقع تدخل اجنبي تم الرد عليه بتدخل مضاد ، ونجم عن ذلك صراع يمثل شكلا حديثا للحرب الاسبانية ، بالاضافة الى عامل جديد هو العامل الذري . ولكن هذه التدخلات العسكرية المكشوفة لن تخلو من الخطر بالنسبة لمن سيحاولون القيام بها . ويندر ان تتصرف الحكومات الثورية بحذر ، كما ان لجوء البلاد المعرضة للهجوم الى استخدام اسلحتها الذرية امر محتمل . وقد تفسح « الحرب الصغيرة » النووية الداخلية المجال امام « حرب صغيرة » نووية عالمية تمدها الدولتان النوويتان الكبيرتان بالعتاد اللازم . ولكن مثل هذا الاحتمال الكارثوي قد يفتح المجال امام الامتناع عن القيام بالعمل .

استنتاج :

والخلاصة ، اننا نرى بان وجود قوى نووية يخلق وضعا حساسا في الفترة الثورية التي قد تكون خطيرة متفجرة الى حد بعيد ، والتي قد تدفع الخصم ايضا الى الحذر . ومن الطبيعي ان يكون الحذر حافزا للجوء الى

تدخلات ماكرة خفية وفق اساليب الحرب الباردة . ولكن تعاقب الظروف قد يؤدي الى ولادة مراحل « حرب صغيرة » نووية داخلية او حتى « حرب صغيرة » نووية عالمية . ويحتمل ان تؤدي الثورة في هذه الحالة الى عودة الصراعات العسكرية المحلية الكبرى التي تستخدم فيها على نطاق واسع الوسائط الجديدة للحرب الكيماوية « الانسانية » (كغازات شل الارادة) . ولكن الامور الرئيسية ستبقى مع ذلك في المجال السياسي والنفسي الحاسم في النهاية .

مظاهر خاصة لمختلف فرضيات الصراع المحتملة :

يمكننا على ضوء التحليل النظري الذي أتينا على ذكره، محاولة اجراء فحص عاجل للفرضيات الرئيسية لتطور الصراعات الثورية الممكنة . وسنرى بأن السير المحتمل لهذه الفرضيات يمكن ان يتم وفق مجموعة أحداث جد مختلفة . ولكن الصفة العامة للصراعات التي قد تنجم عنها ستبقى متأثرة بتوزيع الدول داخل المجموعات الثورية المختلفة .

ولا يمثل هذا السبر والبحث لمعرفة الامور الممكنة سوى توقع لا يدعي ابدا انه قادر على تحديد حالات المستقبل الحقيقية ، ولكنه يميل الى تحديد حالات المستقبل المفترضة، كيما نفهم بشكل افضل الاخطار الكامنة فيها ، ونعمل على تحاشيها اذا كان ذلك ممكنا .

الفرضيــة الاولى :

تبدا الازمة الثورية في الاتحاد السوفييتي قبل غيره .

ستتسم الثورة في الاتحاد السوفييتي بطابع سياسي

خاص : فهي لا تمثل ثورة اجتماعية بالمعنى المعروف – وقد تكون ثورة اجتماعية الى حد ضئيل – ولكنها ثورة للتحرر من القيود التي تفرضها العقيدة الماركسية – اللينينية . ويتم هذا التحرر في البداية بالنسبة لشعب تشبع بالعقيدة الاشتراكية بشكل عميق منذ ٥٠ عاما ، لذا فليس من المحتمل ان يلجأ الى تطبيق مبادىء الليبرالية الغربية التي يعتبرها مبادىء قديمة زال اوانها . ومن المؤكد ان كثيرا من القوانين والبنيات الماركسية وخاصة في مجال الاقتصاد ستبقى كما هي دون ان يصيبها اي تبديل . وبالاضافة الى ذلك فان عددا من الافكار الثورية ذات اللون الماركسي مثل التروتسكية والماوية ، والتي تتمتع ببعض الاحترام لدى قلة قليلة في الغرب ، لن تجد مجالا لانتشارها في الاتحاد السوفييتي الذي سار بثورته حتى نهايتها . وليس من المستبعد ان يظهر الرد على المادية الكلية في العقيدة السوفييتية بميول انسانية ودينية تأخذ اهمية كبيرة . وان تتجه الجهود نحو التحرر من القيود التي تثقل كاهل الفرد ، وخاصة في مجال الفكر . وعلى كل حال ، ومهما كانت الميول الحقيقية التي ستظهر ، فاننا نعتقد بأن الثورة الروسية الجديدة ستكون بقيادة المثقفين ، وستحرر قسطا كبيرا من الحماس والقدرة الكامنين . وقد يكون لمرحلة الفوضى اثر عميق في بلاد مركزية تدير الدولة فيها غالبية المرافق والمؤسسات. ولكن من الممكن ان تكون قصيرة تتبعها مرحلة البناء الفعال دون انتظار . ومن المعتقد ايضا ان هذه الثورة لا تتطلب بالضرورة اللجوء الى العصيان المسلح ولكنها ستكون اقرب الى ثورة القصر ، او الى انقلاب في القمة ، بالاشتراك مع الشرطة والجيش . وهنا تكون الاضرار منخفضة الى الحد الادنى .

ولكنه ليس بوسعنا تجاهل الصعوبات الناجمة عن سعة مساحة الاتحاد السوفييتي الذي يتعذر ان يكون الراي العام فيه موحداً . وبالاضافة الى ذلك ، فان وجود قوميات حية داخل الاتحاد السوفييتي يخلق اوضاعا عديدة شبه استعمارية تقريبا : كرغبة السكان المحليين بالتحرر ، وارادة السيطرة الموجودة لدى الروس العاملين في بلاد القوميات الاخرى سواء أكانوا من « لا باراتشكي » ، رجال الجهاز الحزبي او من الرواد الاوائل او العمال . لذا فان من المحتمل ان ينجح الانقلاب في موسكو اذا قام على اسس ايديولوجية غير متشددة ، ولكنه سيلاقي ولا شك معارضة قوية في الجمهوريات البعيدة . وخاصة اذا كان في هذه الجمهوريات اسباب للفوضى المحلية . ويبدو ان هذا الميل ظهر بوضوح خلال الازمة التشيكية . ومن غير المحتمل في مثل هذه الظروف ان لا يؤدي اي تحول سياسي مفاجىء وجذري في موسكو الى انشقاقات يدعمها العمال الفنيون والجيش . ولا يمكن الحفاظ على الوحدة الا عن طريق تطور طويل وحذر . وبالاضافة الى ذلك فقد يعجز الدرع السوفييتي عن منع اندلاع الانتفاضات الشعبية في بعض الجمهوريات بعد وقوع الثورة في موسكو . وهنا تظهر امكانية رؤية الاتحاد السوفياتي يتجزأ جغرافيا الى معسكرين متضادين . وهي امكانية هامة جدا ، لما قد ينجم عنها من نتائج أساسية .

والحقيقة ان اندلاع الثورة في الاتحاد السوفييتي سيخلق معضلة نووية خطيرة . وسيظهر سؤال هام هو : ماذا سيكون مصير القوة الذرية السوفييتية ، وكيف سيتصرف بها الزعماء الجدد ؟

اذا ما تم تحقيق الثورة عن طريق انقلاب سريع ، كما

حصل بعد وفاة ستالين، فان من المحتمل ان تنتقل السيطرة على القوى النووية كلها الى الحكومة الجديدة . وسيؤدي انشغال هذه الحكومة بالمشاغل الداخلية الى عدم ادخال اي تعديل واضح على التوازن الدولي . وسيتعلق موقفها المقبل بالاتجاه الذي ستأخذه أيديولوجيتها وسياستها . ومهما كان هذا الاتجاه فان من المحتمل ان تكتفي الحكومة الثورية الجديدة باعتبار قواها النووية كترس رادع يؤمن لها حرية كبيرة في العمل السياسي . ولذا فلن يكون في هذه المرحلة اية ازمة نووية .

وما ان تبني روسيا مجتمعها الجديد ذا الصبغةالماركسية، والمتسم مع ذلك بليبرالية اكبر كرد فعل على الستالينية ، حتى يصبح بوسعها الدخول في المجالات العالمية ، والعمل على نشر افكارها في اوروبا والعالم الثالث ، مثيرة بذلك قلق جيرانها وبصورة خاصة قلق دول اوروبا الوسطى التي كانت تابعة لها . ولكن اذا انضمت بعض الدول الاوروبية الى هذه الحركة توضعت الازمة في اوروبا ، وتجابهت الدول الاوروبية الرجعية المدعومة من قبل الولايات المتحدة معالدول الاوروبية التقدمية المدعومة من قبل روسيا . وينجم عن ذلك وضع حرج جدا في اوروبا والعالم الثالث ، وقد يؤدي هذا الوضع الى صراعات محلية طويلة نسبيا . ولكن الردع النووي المتبادل بين روسيا والولايات المتحدة سيحدد مجال الصراعات المحلية ويمنع انتشارها .

فاذا لم تتمكن الثورة من السيطرة دفعة واحدة على مساحة واسعة منالاتحاد السوفييتي، غدا من الممكن اندلاع « حرب صغيرة » نووية داخلية كبيرة الخطورة ، لان الولايات المتحدة ستجد نفسها مضطرة للتدخل فيها . ويمكن انتظهر اوضاع مشابهة لاوضاع عام ١٩١٨ مع انتفاضات محلية

يدعمها الصينيون بغية تامين استقلال القوميات في أوروبا وآسيا . وقد تؤدي ادارة الحرب من قبل القادة الجدد الى اتخاذ قرارات غير حذرة ، ومن هنا تأتي خطورة احتمال انتشار الصراع في العالم كله ، على حين يخلق المثل الروسي مضاعفات متزايدة لدى اعدائه . ويمكن للثورة بعد مرحلة طويلة من الصراع الوصول الى معسكر المحافظين ، وستكون البداية المحتملة في أوروبا الغربية . و لكن اذا تم تحديد الاضطراب الروسي وحجزه بنطاق صحي ، قاد تطور الثورة الروسية دون ريب الى تطور رد فعل فاشي جديد في أوروبا . وستعد مبالغات هذا التطور وتطرفاته وقوع انفجار الثورة الاوروبية فيما بعد .

ومن المحتمل ايضا ان تؤدي الثورة الروسية الى صيغة سياسية واجتماعية جديدة لا تشكل رغم جدتها خطرا على الحضارة الغربية . وينجم عن ذلك تضاؤل حدة التوتر مع الغرب . وقد تحمل هذه الصيغة كثيرا من الآمال المشابهة للآمال التي ظهرت في بداية الثورة الروسية في عام ١٩١٧ . ولكن من المحتمل ان لا يدوم هذا التفاؤل فترة طويلة من الزمن . والحقيقة ان اندلاع الثورة في بلاد هامة كالاتحاد السوفييتي سيستثير في هذا العالم المفعم بالتخمر الثوري عددا من المقلدين الراغبين بشن الثورة . فاذا لم تقع القوة المادية الروسية في الفوضى والاضطراب خلال حقبة طويلة، شكلت هذه القوة قطبا يستقطب كافة القوى المعادية للقوة الامريكية . وهنا سيشهد العالم عاجلا ام آجلا انقسام أوروبا الى مؤيدين لروسيا ومعادين لها . وسيدعم الامريكيون دون ريب أعداء روسيا . ومن المحتمل في هذه الحالة أن تتحول الازمة الثورية الى صراع أوروبي مكشوف تشتبك فيه الولايات المتحدة وروسيا عن طريق شخص ثالث .

وينتج عن دراسة هذه الاحتمالات المختلفة ان اندلاع الثورة في الاتحاد السوفييتي سيخلق بصورة متدرجة أخطارا كبيرة جدا في أوروبا ، وسيميل الى بعث مجابهة الخمسينيات بين الشرق والغرب بصورة أعنف ، معوجود الايديولوجية الثورية كعامل اضافي للدوافع القديمة للقوة . ويمكن أن تستعيد روسيا دورها التاريخي كزعيمة ايديولوجية للثورة . واقل الفرضيات خطورة رغم مظهرها الكبير المثير للقلق ، هي فرضية مرحلة طويلة من الحرب الاهلية داخل الاتحاد السوفييتي ، يزيد من حدتها وجود ميول انفصالية واضحة ، ويقف الغرب فيها على الحياد دون أن يتدخل . وعندها يؤدي هذا الانحسار المؤقت الذيتشهده القوة السوفييتية الى منح أوروبا وقتا كافيا لاعداد حلولها الخاصة بها .

الفرضية الثانيـة :

تبدأ الازمة الثورية في أوروبا الوسطى والغربية قبل أي مكان آخر .

لقد بدأت الازمة في أوروبا الوسطى ، ولن تلبث ان تتطور في الدول التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي . ومن المحتمل أن تنتشر هذه الحركة الرامية الى طبع الماركسية بطابع ليبرالي ، وان تمتد وتتسرب الى عدد من دول أوروبا الغربية . ولكن من الممكن ان تدخل بعض هذه الدول مرحلة الثورة بصورة مفاجئة ، بعد ازمة اقتصادية تصيب عالم العمل بشدة ، او بسبب انقلابات ناجمة عن اختفاء رجال الدولة الذين يحافظون على التوازن الحالي ، او بسبب انتفاضة الشبيبة الطلابية ، او من جراء تطابق هذه الاسباب

المختلفة كلها . ويبدو ان هذه الثورة الغربية المستقلة الى حد بعيد تستوحي دوافعها قبل كل شيء من المبادئ المدمرة الناجمة عن تزاوج الفوضوية مع الماركسية الثورية ، اي من ايديولوجية اشد تقدما من ايديولوجية الثورة الليبرالية الماركسية في أوروبا الوسطى ، وتتشابه تقريبا مع الحركات الماوية والكاسترويه . ولن يكون لهذه الثورة اية ديناميكية اساسية الا في مجال التدمير .

ويقل احتمال ابتداء الازمة في المانيا التي تعيش في قلب الازدهار وتحت تأثير النازية الجديدة ، كما يقل احتمال ابتدائها في البلاد الشمالية (الاسكندنافية) ، رغم وجود الشبيبة المثيرة للفتن . اما هولندا وبلجيكا المقسومتين انقساما عميقا بحركات راديكالية بشكل يثير الاستغراب ، فانهما لا تملكان من التأثير ما يسمح لهما بخلق ردود فعل ممتدة بعيدة الاثر في البلدان المجاورة . ولا تزال انكلترا محافظة الى حد ما ، وهي تنضج في اعماقها تحت غطاء من الهدوء السائد على السطح . وتميل مبادئها وتقاليدها الديموقراطية الشديدة المرونة الى حمايتها من الوقوع في مجابهات عنيفة . واننا لنلاحظ على العكس ان من المحتمل ان تكون اسبانيا والبرتغال وايطاليا اكثر اضطرابا واقل استقرارا ، وان تندفع هذه الدول في انتفاضات خطيرة منذ البداية ، ولكنها لا تملك تأثيرا خارجيا كافيا . ويبدو ان فرنسا قد شفيت الآن من حمى مايو (أيار) الاخير ، ولكنها تحمل في احشائها بذور مغامرات جديدة . فاذا لم يجد رد الفعل الديغولي الحلول اللازمة للصعوبات الاقتصادية الناجمة عن تضخم الاجور ، ولم يتوصل الى الحلول القادرة على احتواء الاصلاح الطلابي او تجريده من سلاحه ، فان من المحتمل ان تبدا

الحركة الثورية الغربية في فرنسا كما كشفت ذلك احداث مايو (ايار) . ويمكن ان تمتد هذه الحركة عندئذ لتشمل أوروبا كلها . وهذه فرضية متوسطة الاحتمال ، ولكنها أشد الفرضيات خطورة .

وتؤدي الثورة في فرنسا قبل كل شيء الى خلق وضع حساس في المجال النووي نظراً لوجود قوة الردع النووية الفرنسية . فاذا ما انتصرت الثورة بسرعة كبيرة ، وعرفت كيف تستقطب الجيش وسلاح الطيران ، وجدنا أنفسنا في وضع تقليدي لا يختلف كثيرا عن الوضع الحالي ، مع فرنسا نووية ومنفصلة . ولن تؤدي هذه الثورة الى اثارة الشكوك الخطيرة في الولايات المتحدة أو في الاتحاد السوفييتي الا اذا امتدت الحركة الثورية الى أوروبا . ويفترض في هذه الحالة ان يتصلب الاتحاد السوفييتي وان يلجأ الى نوع من الستالينية الجديدة بسبب تطور الدول التي كانت تدور في فلكه من قبل . وهنا سيعمل الاتحاد السوفييتي مع الولايات المتحدة الامريكية لتحديد الفوضى الاوروبية ومنع انتشارها ، مع الاستناد الى الدول التي لا تزال محافظة على النظام : كأسبانيا ، وانكلترا ، والمانيا مثلا . وقد يقدم العملاقان لهذه الدول وسائل المقاومة العسكرية اذا لزم الامر . ويأخذ وجود قوة الردع النووية الفرنسية في هذه الحالة اهمية كبيرة ، ويقدم لفرنسا أمنا كبيرا جدا . وليس من المستحيل ان يلجأ خصوم فرنسا الراغبون باجتياحها الى شل هذه القوة الرادعة كتدبير وقائي . وقد تقوم بهذه المهمة القوات التقليدية الالمانية ، او القوات النووية الانكليزية وفق صيغة « الحرب الصغيرة » النووية التي تحدثنا عنها من قبل ، واعادة تجربة المرسى الكبير التي ستحمل هذه المرة في

طياتها اخطارا جسيمة . وعندها سيبدأ الصراع العسكري، وستستطيع فرنسا الافادة من قوتها الرادعة . ان الاجتياح العسكري المستحيل حتى الآن والذي يحتمل أن يكون المانيا ، يغدو ممكنا . وسيميل الاتحاد السوفييتي الى استغلال هذا الوضع ، وشن عمل عسكري لاجتياح أراضي الدول التي كانت تدور في فلكه من قبل ، واعادة الماركسية المتشددة اليها . تماما كما حصل في بودابست في عام ١٩٥٦ وفي براغ في عام ١٩٦٨ . وسيكون حجم الاغراء اكبر اذا ما انضمت المانيا مع جيشها الى معسكر الثورة .

ويفترض تسلسل الظروف هذا توافق وتطابق كافة الحلول المتطرفة . ولقد رأينا في بداية هذا الفصل ان كثيرا من العوامل تلقي بوزنها لجعل التدخلات اكثر دقة وخضوعا للحساب ، وذلك اما بسبب الردع المعنوي ، أو لان الحذر المتبادل بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي يشل هاتين الدولتين معا . ومن المحتمل ان تنتشر الثورة في أوروبا كبقعة الزيت دون أن تؤدي الى وقوع صراع عسكري . ولكن قد تغدو أوروبا الثورية في مرحلة من المراحل تهديدا قاتلا بالنسبة للاتحاد السوفييتي على الاقل نظرا لضعف التوازن الداخلي لهذا البلد . ويمكن أن نشهد مجابهة واسعة بين الاتحاد السوفييتي وأوروبا بدلا من عمليات التدخل الوقائية . وقد تدعم الولايات المتحدة هذه المجابهة اذا ما حافظت على موطىء قدم في اوروبا ، اي في بريطانيا العظمى أو اسبانيا مثلا ، أو حتى في المغرب . وستكون الحالة عندئذ كما كانت الحالة عند الصراع ضد الهتلرية . لقد ترك خطرها حتى تصاعد بحرية تامة ، ثم اضطرت الدول لمجابهتها وهي في أوج قوتها . وسيكون مثل

هذا الصراع خطيرا جدا بالنسبة لاوروبا . ومن المحتمل ايضا أن ينضم الاتحاد السوفييتي بدوره الى معسكر الثورة ، فينجم عن ذلك صراع لا يتصف بأنه صراع قاري موجه نحو الشرق ، ولكنه صراع بحري موجه نحو الغرب وداخل المحيط الاطلنطي الذي يغدو حاجزا بين العالمين المتنازعين . ولكن وجود القوة النووية السوفييتية السليمة في معسكر الثورة سيؤمن لاوروبا درجة عالية من الردع العسكري . وتستطيع الثورة أن تعمل تحت ستار هذا الردع ، وأن تمتد نحو العالم الثالث ، وتصفي كلا من اسرائيل وجنوب افريقيا ، وتكتسب أمريكا الجنوبية ، وتنتظر حتى تتصاعد التناقضات الامريكية الداخلية وتدفع الولايات المتحدة نحو الحركة العالمية .

وتؤكد كل هذه الاحتمالات الممكنة أن الثورة الاوروبية التي تنطلق من فرنسا ستحمل في طياتها أخطر نتائج الصراعات العسكرية .

وستصبح هذه الاخطار اشد تهديدا اذا ما تحولت الثورة الفرنسية الى حرب اهلية نظرا لوقوف جزء من الشعب والقوات المسلحة الفرنسية ضد الثورة . ان « حربا أسبانية » تندلع في فرنسا ، وتتعقد بسبب الاخطار الذرية ، ستؤدي ولا شك الى تدخل أجنبي يحتمل أن يكون أوروبيا ، مع دعم غير مباشر من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . وسنشهد عندئذ « حربا صغيرة » نووية داخلية تتحول في حالة الفشل الى « حرب صغيرة » نووية خارجية .

استنتاج :

ومن الطبيعي ان هذه الفرضيات المتشائمة لا تمثل

الفرضيات الوحيدة . فقد تولد الثورة وتمتد وسط جو سلمي ، وقد لا تولد بالمرة في أوروبا الغربية على الاقل ، على حين أن ولادتها في ألاتحاد السوفييتي محتومة آجلا أم عاجلا . وهنا لا بد ان نقيس بشجاعة النتائج المحتملة والكارثوية للاحداث الثورية التي يتم اندلاعها بخفة وطيش ويساء توجيهها ، بالاضافة الى فرضيات الصراع التي قد نضطر لمجابهتها . واننا لنرى بكل وضوح ان هذه الفرضيات متعددة جدا ، وتتمتع كلها بخطورة بالغة ، ولكن ليس فيها فرضية واحدة محتومة اذا عرفنا كيف نتصرف بحذر .

والآن ، وبعد أن اعترفنا موضوعيا بالاخطار القائمة ، فان علينا أن نبذل مافي وسعنا لمعرفة الوسائل الممكنة لتحاشيها .

الجزء الثالث

مـا العمـل

الفصل السابع

ما العمل

يمكن لمجموعة الامكانات المشار اليها في الفصل السابق أن تعطي الانطباع برؤية رهيبة للمستقبل . فهل يجب حقا مواجهة أبعاد المستقبل بمثل هذا التشاؤم ؟ كلا بالطبع لان بوسعنا أن نشك بامكانية تحديد كافة التأكيدات الخاصة بمسار مشؤوم منذ الآن . وقد رأينا فضلا عن هذا ان هذه الفرضيات المتشائمة الى حد ما تتضمن عدة مسارات ممكنة. وبوسعنا أن نعتقد اذن اننا نستطيع العمل بشكل نؤثر فيه على المصير كي ما نحاول تجنب الاسوأ . ولكن ربما كانت الفرص الاخيرة للعمل قريبة جدا منا . فمن الواجب اذن أن نسارع الى اكتشاف طرق المجابهة وتنفيذها .

ومن المناسب ، ونحن على عتبة هذه الدراسة ، أن نعي ما هو ممكن ، وما هو غير ممكن حقا ، لان من العبث ومن السيء أيضا أن نضحي بالطاقات والارادات الطيبة في اتجاهات محكوم عليها بالاخفاق مسبقا . وعلى العكس ، لا يحق لنا ان نستسلم لمصير يعتبر خطأ او ضعفا مصيرا حتميا . فالانسان مسؤول الى حد ما عن مستقبله . وهذه هي الحرية التي يجدر تقديرها بصورة صحيحة قدر الامكان.

التدابير المتعلقة بالتطور :

وفي مجال التطور ، نجد انفسنا في مواجهة ظاهرة عفوية ، ناجمة عن آلاف القرارات الفردية . ومن العبث أن

نحاول ايقاف مسار هذا التطور الذي نستطيع ان نتمثله في « تيار التاريخ » . وعلى العكس ، فانني اعتقد انني اظهرت في كتابي « **بناء المستقبل** » انه من الممكن التأثير على التطور بأعمال واعية تساعد أو لا تساعد على تفوق بعض عوامل هذا التطور . ونجد انفسنا في هذه الحالة نسارع او نؤخر بعض الظواهر ، ونحقق اوضاعا ناجمة عن التقاءات مختلفة، اي انها من خصائص مميزة متباينة . ولكن ينبغي للمسير في هذا السبيل بصورة مفيدة أن نمتلك **علما سياسيا** متطورا أكثر من العلم الذي نطبقه في الوقت الحاضر ، هذا العلم التجريبي الى حد كبير ، الذي يتعرض للاخطاء بسبب كثير من الافكار المسبقة المتميزة . ونحتاج لهذا الفرض كما أشرت في الجزء الاول الى مراكز دراسات قوية ، والى مختبرات افكار ما زلنا نفتقر اليها بصورة لا تقبل النقاش . هذا هو العمل الذي يشكل أكثر الاعمال استعجالا ، لاننا لن نستطيع أن نستشعر أثره الا بعد فترة . وحسب قول ليوتي ، ليس هناك من أمر عاجل الا الامر المتأخر .

وبوسعنا منذ الآن ، بدءا من تحليل الوقائع في الفصل الثالث أن نكتشف اربعة محاور جهد مواتية في الغرب هي : الاقتصاد ، والتعليم الوطني ، والاعلام ، وبنيات الدولة. ومما لا شك فيه أن هذا التقدير أولي وغير كامل .

ويشكل **الاقتصاد** قطاعا اساسيا في هذا المجال ، لانه هو الذي يتيح الوسائل المادية التي تسمح بالانجازات الجديدة التي يتطلبها التطور . ولكن سلامة الاقتصاد بصورة خاصة عامل نظام واستقرار في عالم يتحرك ، في حين يؤدي مرضه الى مناخ اجتماعي ملائم للثورات الى حد كبير . وهكذا يرتبط نجاح أو اخفاق كل سياسة بالاقتصاد قبل اي شيء آخر .

بيد ان الاقتصاد لا يشكل مادة للسياسة او هو مادة ضعيفة جدا . انه ظاهرة معقدة يرتبط توازنها بمنطق داخلي قاسر جدا . ولا نستطيع السيطرة على الظاهرة والتحكم بها الا اذا تكيفنا مع طبيعتها الى أقرب حد ممكن . ولا تؤدي النظريات التجريدية التي تستهدف نتائج سياسية من خلال الاقتصاد الا الى الحاق بعض الشلل باللعبة المجزية للاليات الطبيعية . وان ما ينبغي ان نفعله هو العكس : الحصول على ارباح من استخدام الموارد بصورة جيدة ، هذا الاستخدام الذي يرتقي الى السياسة أساسا .

وتتأتى الصعوبة من أن النظرية الاقتصادية ، المتقدمة بشكل دائم تبقى متغيرة وغير ثابتة بسبب التبدلات الدائمة الناجمة عن التطور . وينبغي على رجل الاقتصاد ، تماما كما ينبغي على الاستراتيجي أن يقوم بعملياته في مواجهة وضع جديد . بيد أن بوسع التماثل أن يكون خداعا الى حد كبير ، حتى ولو ذكر هذا التماثل بأي وضع سابق.

ورغم هذا هناك عدد صغير من المبادىء الثابتة والمضمونة يمكن تأسيس العمل عليها . والمبدأ الاول هو **نمو الدخل العام** الذي يسمح باستخلاص موارد جديدة دون ان يسيء الى مستوى حياة الشعب ، والذي يتيح اذن حرية عمل اقتصادية ـ وسياسة جيدة . وهناك مبدأ ثان ، يلتقي بالمبدأ الاول ، وهو ضرورة الاحتفاظ بجزء هام من الدخول للاستثمار بغية السماح بالتلاؤم الضروري . ولكن تداخل الظواهر الاقتصادية بظواهر العملة يخلق تناقضات تحسمها النظريات التقليدية على ما يبدو في غالب الاحيان لصالح العملة ، على حين لا ينبغي أن تلعب العملة سوى دور الخادم للاقتصاد . ذلك لان العملة في الغرب عمل من اعمال الدولة على حين أن الاقتصاد ظاهرة معقدة ، تتلاءم فيها المصالح الخاصة، الموجهة

في غالب الاحيان من قبل الدولة ، مع ادارة تتمتع بالسلطة بصورة أقل بكثير من تلاؤم العملة . فالاغراء كبير جداً اذن للتلاعب بالاقتصاد من خلال العملة . اما في النظام الاشتراكي فان الاقتصاد والعملة مرتبطان بالدولة . وهذا ما يجعل عملية التركيب أسهل بكثير . ولكن على الاقتصاد ان يتحمل ثقل تخطيط تصعب مطابقته مع الحاجات الحقيقية . ويبقى علينا أن نتوصل الى تسوية بين الصيغة الغربية والصيغة الاشتراكية ، تميز القطاعات التي تصلح لتخطيط جيد والقطاعات التي ينبغي أن يترك احكامها للعبة القوانين الطبيعية . وسيكون وضع هذه الصيغة ، دون أدنى شك ، نتاج عمليات الجس ، ولكنها أيضا تشكل حلا لمسألة أساسية .

ويفترض كل تخطيط ، لكي لا يكون هناك ديكتاتورية تقنوقراطية ، تنظيم مشاورات مع المصالح المختلفة ، أي أنه يفترض تشكيل **جهاز تمثيلي** يمثل كل الفروع المعنية بالتخطيط الى جانب الجهاز الاداري ، ولا يوجد في الغرب من هذا الجهاز سوى هيكله . ويمكن أن يشكل انشاؤه تقدما هائلا . أما فيما يتعلق بالمشاركة العمالية في ادارة المشروع وارباحه ، فلا يبدو انها تسمح بالحصول على نتائج جوهرية ، لان نتائج المشاركة ليست سوى نفسية ، تنتزع من عالم العمل احساسه بالحرمان من حقه ازاء رأس المال الخاص أو المغفل أو الحكومي .

ولكن المسألة السياسية الكبرى هي مسألة **توزيع الدخل القومي** بين مختلف الفئات . ولقد عالجت هذه المسألة باختصار في الفصل الثالث وأشرت الى ان التوزيع الحالي لا يفسح المجال الواسع لترفيع النخبة الحقيقية ويبقى ارباحا شاذة جدا في الغالب . ولا تستطيع اية سياسة اصلاحية تجاهل تقديم الحلول البناءة في هذا المجال .

وهناك مظهر جانبي لسياسة الدخول ، وهو مظهر غير مطروح في البلدان المتطورة ولكن له اهمية مأساوية في البلدان المتخلفة . واعني بهذا المظهر مسألة الاكتظاظ السكاني. ولدينا طريقتان لحل هذه المسألة هما : توقيف التكاثر الديموغرافي وتنظيم النسل ، والاسراع بتنمية الموارد مع اجراء الاستثمارات في القطاع الزراعي أو قطاع التغذية . وقد يؤدي وضع قواعد اخلاقية جديدة الى تطوير الطرق التي تمنع الحمل (وينبغي الاشارة من ناحية أخرى ، الى ان استخدامها لا يتبرر ماديا الا في الدول النامية ، ويتسم بأخطار مؤكدة في الدول المتقدمة) . ولكن هذا المخرج ما زال غير مؤكد ، وربما كان مخرجا متأخرا جدا . وعلى العكس ، فان تطوير الموارد سيكون على كل حال مجزيا ومواتيا ، ومن الواجب الشروع به منذ الآن على مقياس كاف ضمن اطار عمل دولي .

والتعليم الوطني قطاع رئيسي آخر ، في أوروبا أساسا . وقد عالجته بالتفصيل في الفصل الثالث . ولن أعود هنا الى التدابير الخاصة التي ينبغي القيام بها . ويمكنني انقول بصورة عامة ، بأن اصلاح التعليم الوطني مسألة عاجلة يستطيع حلها الصحيح وحده اعادة الوئام الى صفوف الشبيبة . وأن الهدف أساسا هو اجراء تلاؤم أصبح ضروريا بسبب طبع التعليم بالطابع الديموقراطي . وتشتمل الصيغ التي يبدو انها تفرض ذاتها بوضوح ، على ادخال التنظيم الاشتراكي في التعليم ، وذلك بأن تتحمل الدولة تكاليف التعليم ، واعالة الطلاب المتفوقين (بأجر) ، واقامة فروع مهنية بصورة مبكرة جدا تقود الشباب دون جهد ودون امتحانات قاسية الى مهن يتم فيها اعدادهم العملي والنظري

تدرجيا ، كما يتم فيها الانتقاء المتأخر للعناصر التي تشكل النخبة الحقيقية.

ويفترض التخطيط العام لهذه الفروع المهنية وجـــود ارتباط وثيق بين التعليم الوطني ، والاقتصاد ، وعالم العمل، والاساتذة . وسيشكل تنظيم هذا التخطيط ، الجديد كــل الجدة في الغرب ، تقدما اساسيا .

وهناك تقدم اساسي ، قد اصبح ممكنا بفضل «الشرائح المتوسطة » يشتمل على نشر التعليم بواسطة الاذاعة والتلفاز، وعلى أقنية متخصصة تسمح لكل الناس بالحصول علـــى معارف جديدة واعادة اتباع دورات تعليمية ، أو امكان التوجه الى مهن جديدة تفتح آفاقا مستقبلية أوسع .

ونرى من وجهة النظر هذه أن الاعلام الحديث يستطيع وينبغي عليه ان يقوم بدور حاسم في **تعليم المواطن وتثقيفه** . والخطآن اللذان ينبغي أن لا نرتكبهما هو ان نجعل من الاعلام دعاية ضيقة أو تسلية تافهة ومفسدة للعقل . ومن المؤكـد ان من الصعب تحقيق الحل الصحيح ، واننا لـن ننجح فيـه الا تدرجيا ، اذا عرفنا كيف نتجنب الاغراءات القاتلة للسهولة، والاعلان التجاري ، والتعصب الحزبي .

وفي الواقع ، ليس الاعلام بضاعة ، بل انها خدمة عامة ينبغي أن تظهر للرأي العام المشكلات الحقيقية المتعلقة بــه، كما ينبغي أن تظهر له مختلف الحلول المقترحة . وينبغي أن يكون هذا العمل دور كل الاقنية ، من اكثرها ثقافة الــى اكثرها شعبية ، حسب طرق مختلفة ومتلائمة بالتأكيــد . ولا يمكن الحصول على مثل هذه النتيجة الا اذا كان المكلفون بالاعلام قد كونوا لانفسهم فكرة سامية عن دورهم الاجتماعي ولم يخلطوا بين حرية الاعلام وثقافة الاشياء المثيرة والبلهاء.

وفي مجال **بنيات الدولة** راينا بروز عدة اتجاهات . وتشتمل المشكلة الحديثة الكبرى على منع تكلس الدولة المركزية الموروثة من الصيغ النابليونية ، والمشلولة بشبكة معقدة من القوانين والمسؤوليات الموزعة بصورة سيئة . وان عيبها الاساسي هو ديكتاتورية الامر الواقع التي تمارسها ادارة المالية وآليات الرقابة الاولية التي فرضتها . وينبغي أن نستخدم لا مركزية كافية وتنظيما بعديا لا يعاكس المبادرة كيما نعيد لهذه الادارة فعالية خلاقة ملائمة لدورها في العالم الحديث . وما زلنا بعيدين كل البعد عن هذا .

ولقد أشرت فيما سبق ، ولن اتطرق هنا الا للذكرى ، الى ضرورة **طبع التقنوقراطية بالطابع الديموقراطي وطبع الديموقراطية بالتقنية** بتنظيم استشارات بين الادارة والكفاءات . ونجد هنا تقدما ضروريا يحتاج تحقيقه الى وقت من دون شك .

وخارج هذه الاجهزة الوسيطة ، الوحيدة التي تسمح بتجنب ديكتاتورية الإدارة تبقى المسألة الكبرى للارتباطات التي ينبغي اقامتها بين السلطة المركزية والرأي العام . وتبدو الطرق الديموقراطية في الاستشارة صحيحة جدا لانها برهنت على ذلك، وتبدو أنها بحاجة الى مزيد من التطور دوما في اتجاه الديموقراطية المباشرة . ولكن دور الاعلام هنا اساسي أيضا .

ولا بد لمختلف هذه الاعمال التي تهدف الى تلافي المساوىء الحالية التي يمكن الاحساس بها اكثر من غيرها ، اقول لا بد من ان يكون لها أثر ملائم على التطور في الغرب. ولكن ينبغي أن نرى بوضوح انه في غياب علم سياسي مستقبلي اكثر تأكيدا من العلم الذي تملكه اليوم فاننا لن نكون قادرين على التأثير على التطور ذاته بفعالية ، لتجنب أخطر الظروف

الطارئة . ومرة أخرى ايضا ليس بوسعي سوى ان اشير الى الضرورة المطلقة **لتنظيم دراسة العلم السياسي** بواسطةمعاهد مصممة بصورة جيدة ومزودة بالوسائل الكافية . فالعمل المرتجل البدائي في هذا المجال لا يعطي كثيرا من النتائج.

التدابير المتعلقة بالاحداث :

ومهما تكن التدابير المتخذة في مجال التطور ، فاننا لن نقضي على الحوادث الطارئة الى حد ما ، ولا على سورات الحمى الثورية . فستبقى الازمات والنزاعات ممكنة الحدوث . فماذا ينبغي أن نفعل في هذا المجال ؟

ينبغي أولا أن نحاول تنظيم جهاز لدراسة الظواهر التي تهمنا مراقبتها ، ودراستها . ولا ينبغي أن يقع حدث كحدث مايو (أيار) الاخير في فرنسا أو اغسطس (آب) في تشيكوسلوفاكيا على حين غرة . فقد تظهر التجربية السياسية خطرة جدا .

ومن ناحية أخرى ، ضمن الحد الذي نستطيع معه أن نفهم منذ الآن الظواهر الثورية ، من المؤكد ان من الواجب التدخل بصورة مبكرة جدا ، ووقائيا اذا أمكن ، ومنذ بدء الاضطرابات على كل حال قبل أن تصبح هذه الاضطرابات أحداثا لا يمكن ضبطها . ومن الواجب اذن أن نملك شرطة قوية ، موثوقة **ومزودة بالمعلومات** ، حازمة وماهرة ، ومسلحة بأحدث الوسائل .

واخيرا ، من الواضح أن عملا صرفا مضادا للثورةيتحول بالضرورة الى نوع من الحكم الفاشي. ولكي نتجنبمثلحجر العثرة هذا ، ينبغي ان يقترن عملنا المضاد باصلاحاتجريئة، ديموقراطية الى أوسع الحدود .

ولكن كل هذا التحضير لا يكفي . وقد راينا في الفصل السادس فرضيات الازمة والنزاع . وحتى اذا ما توصلت بعض البلدان (ومنها بلدنا) الى تجنب الثورة العنيفة ، فمن الممكن ومن المحتمل ايضا ان تنشب الثورة في مكان آخر . وسوف تطرح مسألة العلاقات مع الدول الثورية عاجلا ام آجلا على بساط البحث ، كما ستطرح مسألة الاخطار التي تولدها هذه الثورات . وقد راينا منذ الآن كيف مرت الصين والعالم الثالث وأوروبا الوسطى بالازمات . وليست ازمة هذه البلدان في الوقت الحاضر سوى ظواهر محيطية بالنسبة لنا .

ولن تبقى هذه الظواهر محيطية بالنسبة لنا عندما ستتحقق احدى الفرضيتين الكبيرتين اللتين حللتهما في الفصل السابق : الازمة الثورية التي تبدأ في الاتحاد السوفييتي ، أو الازمة الثورية التي تبدأ في أوروبا الغربية. وان التعرف على آمائر كل من هاتين الفرضيتين (١) أمر اساسي بغية أمكان اكتشاف درجة احتمال وقوعهما الوشيك في وقت ملائم . ومن الضروري أيضا التعرف على المسائل التي ستطرح علينا عندئذ حتى لا نفاجأ بها ، ولكي نتخذ منذ الآن اذا أمكن التدابير الكفيلة التي تسمح لنابحلها . وسيشكل هذا الموضوع دراستنا الاخيرة .

وليست **فرضية الازمة الثورية التي تبدأ في الاتحاد السوفييتي الا احتمالا** (فقد تنشب الازمة في أوروباالغربية قبل الاتحاد السوفييتي) . ولكن احتمال وقوع ازمة خطيرة

---

(١) ان الجدول المذكور في الصفحة ١٤٤-١٤٥ يشير الى الامائر الرئيسية .

في الاتحاد السوفييتي أمر يصل الى حد شبه اليقين . ولا بد لهذا الحدث الاساسي من ان يؤدي الى نتائج هامة .

وقد ظهر لنا من التحليل الذي قمنا به في الفصل الخامس ان الخطر الاول في هذه الحالة هو تحول هذه الازمة **الى حرب اهلية داخلية** تتورط فيها بشكل او بآخر القوى النووية السوفييتية . ويبدو أيضا أن هذا الاحتمال قد يثير التدخل الامريكي، المباشر أو غير المباشر . ولو تم هذا التدخل فانه سيشكل خطيئة أساسية ، لاننا سندخل في متتالية احداث لا يمكن التنبؤ بنتائجها وآثارها ابدا . ويبدو أن الامتناع عن التدخل يفرض ذاته . ويفرض عدم التدخل ذاته ايضا في حالة ظهور حركات انفصالية ايضا . وينبغي ان يبقى احتمال رؤية الاتحاد السوفييتي موحدا من جديد في ظل سلطة قوية ، ماثلا في الذهن دوما ، والاحتراس من كل تدخل متسرع قد نندم على وقوعه فيما بعد .

فاذا انتصرت **الثورة في الاتحاد السوفييتي** ، فانها تملك القوة النووية السوفييتية الجبارة . وهكذا تبقى الثنائية ـ القطبية النووية قائمة بسبب هذا الواقع ، ويبقى الردع النووي المتبادل قائما مع الولايات المتحدة . أنه وضع موات عام ، حتى ولو اتسمت الثورة ذاتها بالاخطار ، وهو أمر لا يمكن أن يكون مؤكدا لانه يخشى أن لا تكون الاتجاهات الليبرالية داخل المجتمع الماركسي سوى اتجاهات فوضوية جد معتدلة. وسيطرح الانتشار اللاحق لهذه الثورة الايديولوجية أولا ، وربما العسكرية فيما بعد ، سوف يطرح مشكلات خطيرة في دول أوروبا الوسطى ، وسيبرر تنظيم دفاع مشترك ترتبط قيمته بالقناعة التي تتبناها الدول الاوروبية للدفاع عن نفسها . ولكن ينبغي ان لا ننسى ان الردع بالقوى الامريكية

في هذه الحالة سيمنع كل غزو كثيف . ولن يكون الهدف اذن سوى القيام بتسللات وحوادث ذات طابع سياسي. وتتوقف قيمة هذه الحوادث ذاتها على تماسك السكان في مواجهة الخطر الثوري . فاذا كان تماسكهم كبيرا ، فانه من الممكن لهذه القوى الموجودة للدول المختلفة أن تكفي لاحتواء الاندفاع الروسي . واذا كان هذا التماسك غير كاف ، يحدث التسلل ، وتنقسم أوروبا الى دول ثورية ودول رجعية ، وهو وضع خطر جدا سنتحراه فيما بعد . ولكن الردع المتبادل مع الولايات المتحدة في الفرضية الحالية سيتجه الى تحديد النزاعات .

ومن الممكن أن تخفق الثورة أيضا في الاتحاد السوفييتي وأن تؤدي الى رد فعل ستاليني جديد . وليس هذا الاحتمال خطرا الا اذا تدخلت الولايات المتحدة ، أو بعض الدول المتاخمة الى جانب الثورة أو ضمت أيضا بعض الاراضي السوفييتية . ولهذا توصلت فيما سبق الى استنتاج ضرورة الامتناع الحذر عن التدخل في المراحل الاولى من الحرب الاهلية . واذا كان الامر على العكس ولم تتورط أية دولة من الدول ، فاننا سنجد أنفسنا في وضع عرفناه يجعله الردع النووي مستقرا بصورة خاصة ، وبخاصة بعد ازمة داخلية خطيرة في الاتحاد السوفييتي .

والخلاصة ، وكما رأينا ، لا يبدو أن للثورة في الاتحاد السوفييتي آثارا خطيرة جدا على أوروبا فورا ، اذا عرفنا كيف نتجنب أي تدخل يتسم بالمغامرة .

وتقدم **فرضية ازمة ثورية تنشب اولا في أوروبا الغربية اخطارا** مباشرة اكثر . وان نتائجها العامة هي اكثر النتائج اثارة للقلق . اولا ، فمن الممكن ان يتحقق تبعا لهذه الفرضية

التواطؤ بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي، علما بأن هذا الاخير متورط بالفعل في أوروبا الوسطى ويتخذ فيها موقفا « محافظا » . ونخسر في هذه الحالة ربح الشلل المتبادل للقوات النووية الامريكية والسوفييتية ، وتزداد مخاطر التدخل العسكري ، المباشر او غير المباشر . ومن ثم فان مثل هذه الثورة تحقق بفعل الواقع تجزئة أوروبا الى معسكرين متعاديين . وتتفتت أوروبا وتتفكك ، واذا كان هذا التفكك يعد بالتأكيد وحدة القارة في المستقبل ، فسيكون ثمن ذلك في الحقيقة تراجع اقتصادي كبير ، وربما تدميرات واسعة .

فاذا تحققت فرضية الثورة التي تنشب في أوروبا اولا ، يصبح من الضروري « المناورة أقرب ما يمكن » لتجنب اخطر الاحتمالات .

وينبغي أن يكون الشاغل الاول هو **تجنب « حرب صغيرة » نووية داخلية** . ويمكن التوصل الى ذلك اولا – بتنمية قواعد اخلاقية واضحة جدا في اوساط القوى النووية تعطي للجميع فكرة سامية عن المسؤوليات الخاصة التي تقع على عاتق أفراد هذه القوى . وتعتبر كل انشقاق فردي مخجلا ومجرما . وينبغي بالاضافة الى ذلك وجود شبكة من الرقابة والضمانات المادية (مفاتيح متعددة ، جهاز للرقابة الخ ...) تنتزع من العمل الفردي ، حتى ولو كان عمل قائد من القادة كل امكانية ، لأن من الممكن للموانع الخلقية ان تعاني ضعفا . واخيرا فان القواعد الاخلاقية الخاصة بهذه القوى هي أن لا تتدخل بأي حال من الاحوال في اي نزاع داخلي ، وأن تنتقل كتلة واحدة الى جانب الحكومة المنتصرة وأن تنحاز اليها .

وينبغي ان يكون الشاغل الثاني **هو تجنب «حرب صغيرة» نووية خارجية** . وللتوصل الى هذا ، يبدو انه من الممكن محاولة تطمين الدول النووية الكبرى على حياد قوات الردع الا في حالة الغزو . ومن الممكن عند الحاجة اقتراح اقامة جهاز من مراقبي الامم المتحدة لهذا الغرض .

والشاغل الثالث هو **تجنب تدخل الدول العظمى والدول المجاورة** . ويفترض هذا الموقف اتسام حكومات هذه الدول بتعقل نادرا ما تتسم به الحكومات الثورية ، ولكن من الممكن أن نفكر أيضا بأن هناك خطيئة ينبغي أن لا يقوم بها أحد الجانبين ، وهي طلب التدخل الاجنبي ، لان أي تدخل من جانب يجر التدخل من الجانب الآخر . وسيكون تدخل الاتحاد السوفييتي بالتواطؤ مع الولايات المتحدة الامريكية اخطر التدخلات . وكذلك ، يصبح من الضروري محاولة فصل الاتحاد السوفييتي عن الولايات المتحدة بتدابير ملائمة. ويتخذ تدخل المانيا في الازمة خطورة تدخل الاتحاد السوفييتي نفسه ، ولو على درجة أضعف . وهنا أيضا ، من الضروري اتخاذ بعض الضمانات .

ونرى انه في فرضية الثورة التي تنشب في اوروبا اولا ، لا بد من تحديد الاخطار بسلوك حاذق جدا ، وباحتياطات متعددة مدروسة بصورة جيدة لابد من اتخاذ بعضها منذ الآن . وبهذا الشكل نتحاشى اخطار استخدام السلاح النووي ، الحامي والمستفز في الوقت ذاته . وتسمح السياسة الحاذقة للحكومة الشرعية او الحكومة الثورية اذا انتصرت هذه الاخيرة بتجنب الاصطدام بين الدول المتعادية ، أوليا على الاقل .

ومن الممكن ان يكون للثورة فيما بعد اذا ما امتدت

اخطر النتائج . ولكن من الممكن تقليص هـذه المخاطر اذا ما حصلت الثورة على دعم الاتحاد السوفييتي . وفي سياق فكري آخر ، نجد أن احتمال قيام نزاعات في داخل أوروبا يجعلنا نستعد لمطلب قوات هائلة نسبيا ، في حين يكـون السلاح النووي مشلولا . ويفرض هذا الاحتمال توطيـد تنظيم الجيوش على نظام من الميليشيا الوطنية ، وهوالصيغة الاقتصادية الوحيدة ، التي تتطلب قوات منظمة هائلة عدديا ومجهزة عند الضرورة بوسائل بدائية .

استنتاجـات :

لا تستهدف عملية التحري هذه أن تكون شاملةوكلية، بل انها تسمح مع ذلك بالتحقق من انه من الممكن تصميـم بعض التدابير وبعض المواقف السلوكية ، التي ربما تكـون قادرة على تجنب أخطـر الظروف . ومما لا شك فيـه أن الدراسة المتأنية والمتمتعة بشمول أكبر ، والمستندة الى علـم سياسي أكثر تطورا من العلم الحالي ، مما لا شك فيـه انها تؤدي الى استنتاجات عملية أكثر فاعلية لانها أكثـر كمـالا وشمـولا .

وينبغي علينا ان نحول جهدنا الى هذا الاتجاه اذا اردنا ان نتحاشى المفاجأة مرة أخرى ، وأن نتجنب بالتاليانجرافنا بالاقدار المحتومة التي تركناها تتطور .

جدول مختصر بالعلامات الهامة
التي تعلن عن امكانية وقــوع
احـــداث ثوريـة

الأمائـــر :

تطور الافكار ، وظهور نظريات جديدة .

نجاح أو اخفاق الاصلاحات في فرنسا .

اخفاق (او نجاح) الاتحاد السوفييتي بوجود رد الفعل الستاليني الجديد . تطور أو فشل رد الفعل هذا .

تطور في أسبانيا ، والبينيلوكس (بلجيكا وهولنـــدا واللوكسمبورغ) ، وانكلترا .

تطور في المانيا . نمو الحركة النازية الجديدة .

الانتخابات الامريكيـة . تطور الاتجاهات الداخليـة، وتطور مشكلة الزنوج .

نهاية الحرب الفيتنامية .

الوقائـــع :

ظهور حركة ثورية في الاتحاد السوفييتي .

ظهور حركة ثورية في فرنسا او اي بلد اوروبي غربـي آخـــر .

حركة اصلاحية في اوروبا الوسطى او في الاتحـــاد السوفييتي (انطلاقا من الشيوعية) .

حركـــة اصلاحية في اوروبا الغربيـــة انطلاقا من الراسمالية .

حركة ثورية في الولايات المتحدة الامريكية .

حركة فاشية جديدة في الولايات المتحدة الامريكية.

انتصار الماوية في الصين .

انهيار الماوية أو تحولها .

موت مـــاو .

الاستنتاجات العامـــة

يشير كل استكشاف للمستقبل على قرب وقوع تغييرات كبرى واننا نعاصر ولادة حضارة جديدة .

ومن الممكن أن تولد هذه الحضارة التي تخلق من خلال تطور مستمر او بعد أزمات محدودة ، او على الاسوأ ، بعد فترة طويلة من الفوضى . وهناك مسألة كبرى تطرح نفسها علينا هي معرفة كيفية تجنب الازمات أو كيفية حصرها على الاقل . ولكن ما يهم بصورة خاصة ، وراء هذه المشكلـــة التقنية هو تسهيل قدوم هذه الحضارة الجديدة مع محاولة استقصاء ملامحها الاساسية .

ولا يبدو ممكنا في الظرف الراهن امكان تحديد هـــذه الحضارة الجديدة مسبقا بنظرية مجردة كما كانت عليـــه الليبرالية او الماركسية . وان الاحتمال الاكبر هو أن علـــى

الحلول التي توضع أن يقوم بالتركيب الذرائعي (١) لمختلف الاتجاهات مع سعيها لتقديم علاجات لمختلف المحاذير التي يمكن التنبؤ بها . ونتوصل الى هذا بطريقة بناء تجريبية، بالعمل بتنقيحات متتالية ، يحتاج القيام بها الى وقت طويل. وينبغي اذن اضاءة هذا الاستقصاء **بفكرة موجهة** .

ويبدو أن هذه الفكرة الموجهة هي تحقيق تركيب **للتنظيم** الضروري في عالم آلي ، ولتنظيم الحرية الضرورية للانسان . ولكن هذين الهدفين اللذين ينبغي التوفيق فيما بينهما متناقضان في بعض أجزائهما لان الحرية محدودة بالتنظيم دوما . وينبغي اذن أن يتعلمها وأن يستحقهامستوى عال من التعليم . وعلى العالم المقبل أن يفرز قواعدهالجديدة ومحرماته التي تسمح مراعاتها والتقيد بها للتنظيم بالعمل دون ان يثقل ويزعج . **فالمفتاح هو في التعليم اذن** ، والا فان هناك طغيانا أو فوضى .

واذا كانالتعليم هو المفتاح ، فربما لا يكون التعليم فعالا الا اذا تم باسم **مثل أعلى** محدد بوضوح ، ويعطي معنى للجهد البشري على الارض . ومن وجهة النظر هذه يبدو ان على المثل الذي ينبغي تحريكه ان يحقق تسوية منسجمة بينالمادية الحتمية والروحانية التي تستطيع وحدها أن تتيح معنى ساميا للمصير البشري . هذا هو الهدف الذي يبدو طموحا، ولكنه ضروري لكل تقدم حقيقي .

واخيرا ، ينبغي ان تتحول تقنية التعليم لكي تنتقل

---

(١) Pragmatique

من النظام الحالي الذي يشكل « دفيئة البواكير » (١) للشبيبة كيما يشكل منها طبقة متميزة في وقت مبكر ، الى نظام مرن ومتحول يستمر خلاله اعداد الشبيبة وخلقها طيلة الوجود . وبدلا من تعليم سريع وانتقاء تعسفي مرتجل ، يتبعه اعلام لا مسؤول ، ينبغي تنظيم الربط الدائم للتعليم والاعلام عقلانيا . ونملك لهذا الغرض وسائل قوية ، وقوية جدا ايضا ، ينبغي أن تسمح بتحقيق تسوية صحيحة بين الاعلام الحر ، والتعليم والفراغ ، وعدم السقوط في فخ الدعاية المتشيعة ، واللهو التافه السخيف .

وانني لا اخفي رأسي في الرمال لان هذه الافكار القليلة قد تكون طوباوية . وهي طوباوية على الاقل بشكلها المجمع الذي عبرت عنه . ولكني رغم هذا مقتنع بأنها تمثل اتجاهات جهد منطقية وخيرة بالتأكيد .

ولا نحتاج الى أمل للشروع بالعمل ...

★★★

وترتبط الاستراتيجية بالتقنيات الاخرى . وهي مجال ينبغي فيه القيام بكثير من التنبؤات ، وبحساب دقيق للفرضيات ، حيث ينبغي أن نعرف كيف نتدخل في الوقت المناسب (أي بصورة مبكرة اذن) مع تحاشي كل روح مغامرة ، وحيث يسبق الاهتمام بالمستقبل الاهتمام بالحاضر ، بغرض تحديد الاخطار التي تنبىء بحدوثها الى أقصى حد ممكن . والاستراتيجية فن جديد لا يسمح بالعمل بيقين معقول الا بالاستناد الى علم سياسي مضمون أكثر من العلم الذي نملكه في الوقت الحاضر . وبوسعنا مع ذلك في الوضع

---

(١) Forcetie

الحالي لمعارفنا محاولة تمييز الخطوط الكبرى لهذه المسألة.

ان العالم الحالي ، الذي يتميز فيه عالم غني تترصده الوفرة والزيادة في تكدس رؤوس الاموال ، وعالم متخلف يكمن له ويترصده الانفجار السكاني ، ان هذا العالم الحالي هو معقل اتجاهين متضادين : الاتجاه الى الوحدة كهدف أخير ، والاتجاه الى المعارضة الناجم عن نزاعات الدول القوية أو النزاعات الايديولوجية في داخل العالم المتطور . ولا يمكن حل التوترات الناجمة عن تخلف جزء كبير من العالم الا اذا عرف العالم المتطور كيف يتحد ، أو على الاقل اذا عرف كيف لايتنازع ويتقاتل. وليست الوحدة المعنوية للعالم المتطور ممكنة التحقيق الا بأيديولوجية يقبلها الجميع . ومن هنا تنجم اهمية التطور الحالي ونضجه باتجاه حضارة جديدة قادرة على ضم الجميع وتلاحمهم . ومن هنا تنجم ضرورة تجنب القطيعة التي يتعذر اصلاحها ومحاربة المبالغات التي لا فائدة منها . ولكن من هنا تنبثق أيضا ضرورة رفض الحلول الخاصة جدا ، والجزئية الى حد كبير ، بغية امكان الوصول الى نوع من الانسجام والتناسق ، والى اتفاق لدول العالم المتطور .

وبوسع هذا المثل الاعلى ، الذي يعتبره البعض طوباويا والذي لن يتحقق بصورة افضل اذا ما تحقق فعلا الا بعد عدة انقلابات ، بوسع هذا المثل الاعلى مع كل هذا أن يكون فكرة موجهة وسط الاحداث والازمات .

وندخل عندئذ في مجال الفرضيات التي تنصب على الوضع المتطور او الثوري للابطال الرئيسيين على مسرح العالم . ويبرز هذا المسرح عددا معينا من المتحولات التي يمكن محاولة التعرف على آثارها الممكنة .

ان **المتحولة السوفييتية** ، كما راينا هي احدى المتحولات الرئيسية ، وهي ازمة النظام الماركسي ، التي بدات في اوروبا الوسطى ، وهي لا بد ان تبدأ نسبيا في الاتحاد السوفييتي ذاته بصورة مبكرة . ومن الممكن ان يقع هذا الحدث حسب طرق مختلفة جدا . ومن الممكن أن يؤدي الى فوضى دائمة في روسيا ، والى انفجار الامبراطورية السوفييتية والى خسوف تام ومستمر الى حد ما للقوة السوفييتية . وسيتأثر توازن العالم من جراء ذلك الى حد كبير لصالح الولايات المتحدة وأوروبا الغربية والوسطى التي تستطيع أن تتحد عندئذ ، وربما تتأثر الصين ايضا . ومن الممكن ان تتطور الثورة على العكس في ظل ايديولوجية اكثر ليبرالية ومثالية تؤدي الى استقطاب دول التبعية السابقة ، والى انضمام اوروبا الغربية أيضا . وفي هذه الحالة يمكن للنفوذ الروسي في العالم أن يكون هائلا ، وأن يساعد على وحدة أوروبا في كنف روسيا ، وأن يساعد أيضا على الاتفاق السلمي للعالم المتطور ، الا اذا عارضت الولايات المتحدة الامريكية هذا التوسع لاوروبا الآسيوية لدوافع تتعلق بالاحتفاظ بقوتها . وبوسع الثورة أخيرا أن تحدث في الاتحاد السوفييتي صيغة جديدة ذات طابع مذيب وديناميكي يعتبر غير مقبول في الغرب ، الامر الذي قد يؤدي الى توسيع الفرقة والشقة القائمة بين الشرق والغرب ويفتتح عصرا من الازمات والنزاعات .

والمتحولة الاوروبية الغربية مهمة ايضا بسبب التبدلات الكبرى التي تبدو أنها تتهيأ تقريبا في كل مكان ، والتي ترى تطور اتجاهات فوضوية شاذة في خلفية جماهيرية معقولة . وهنا ايضا بوسع الازمة الثورية في أوروبا الغربية ان تحدث آثارا مختلفة جدا . وفي أحد الاطراف القصوى تستطيع ان

تؤدي الى فوضى مستمرة ، وانقسامات ومعارضات في داخل أوروبا ، وبين أوروبا والولايات المتحدة او بين أوروبا والاتحاد السوفييتي ، اذا كان نظام الاتحاد السوفييتي ستالينيا جديدا . وبوسع أوروبا عندئذ ان تكون مركزأحداث خطيرة جدا ، وان تؤدي الى عدم توازن دائم في العالم. وفي الطرف القصي الآخر ، بوسعنا أن نتخيل أن أوروبا الغربية تنتج صيغة جديدة متلائمة مع المطالب الحديثة ، وتحقق تركيبا حسنا للتنظيم والليبرالية تحت كنف مثالية متجددة. وفي هذه الحالة تمارس أوروبا بالضرورة تأثيرا كبيرا على العالم ، وعلى الاتحاد السوفييتي بصورة محتملة أولا ، ثم على الولايات المتحدة والعالم الثالث . وبين هذين الضدين، تستطيع أوروبا كالاتحاد السوفييتي وربما أكثر منه أن تفرز صيغة ثورية ديناميكية متطرفة الى درجة تجعل بعض الدول ، ومنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ،غير قادرة على قبولها دون صراع . ونجد عندئذ شروط فترة ثورية مستمرة من الاضطرابات كما في الفرضية الاولى مع مخاطر خطيرة في تقسيم العالم المتطور .

ويبدو أن **المتحولة الامريكية** تشتمل على حلول اقل تباينا اذا قبلنا بأن الولايات المتحدة بقوتها المادية وروح جماهيرها المحافظة ستتجنب أوليا على الاقل التغيرات الكبرى التي يتجه جزء كبير من طبقتها المثقفة الى احداثها . وتقود الفرضية المحتملة لبعض الجمود في الولايات المتحدة وتؤدي اذن الى تشكيل قطب معارض للحركات الثورية التي يمكن ان تحدث في مكان آخر من العالم . ورغم هذا ، فليس من المستحيل أن تعرف امريكا مشاغل داخلية خطيرة ، سواء بسبب امريكا اللاتينية ، المضطربة الى حد كبير ، او بسبب مسألة الزنوج ، او بسبب الانفصال المتفاقم القائم في الولايات

المتحدة بين النخبة المثقفة والجماهير ، او بسبب تجمع وتضافر كل هذه الاسباب المختلفة . فاذا وقعهذا الاحتمال، فسيكون أثره هو دفع الولايات المتحدة الى الانكماش على نفسها لبعض الوقت ، وان يؤدي هذا الانكماش بالتالي مؤقتا الى نوع من خسوف النفوذ الامريكي في القضايا العالمية .

وتشتمل **المتحولة الصينية** على فرضيات متباينة جدا : نجاح ، فوضى ، رد فعل ستاليني، انزلاق الاقتصاد الصيني نحو الليبرالية . ولكن ما يبرز بوضوح أكبر من مختلف التحليلات المستقبلية ، هو أن الظاهرة الصينية لا يبدو انها ستمارس بصورة طبيعية نفوذا مباشرا هائلا على الاحداث التي يخشى وقوعها في السنوات العشر المقبلة . ويبدو النفوذ الصيني المؤكد على الحركات الثورية المختلفة ايديولوجيا صرفا . وان الخمائر التي وضعها هذا النفوذ ، حتى في الغرب ، والتي مازال يبذرها أيضا في العالم الثالث ستستمر في ممارسة أثرها التفتيتي ، الذي يبدو أثرا طفيفا ، وعلى الاقل مادامت الفوضى لم تتوطد في أوروبا أو في الاتحاد السوفييتي . ومن الممكن أن يتحقق الحلم الكبير لماوتسي تونغ وهو التطويق الايديولوجي للاتحاد السوفييتي « التحريفي »، وبوسع الخسوف المحتمل للقوة السوفييتية عند حدوث اضطرابات داخلية في داخل الاتحاد السوفييتي أن يعضد بعض الاعمال المحلية في الجمهوريات الاشتراكية الآسيوية. ولكن كل هذا يبدو هامشيا بالنسبة للاحداث الاخرى الكفيلة بتقويض التوازن العالمي . وليس هناك اي خطر الا في الفرضية البعيدة الاحتمال لحسن الحظ ، والتي تتضمن انتشار فوضى عامة نرى فيها الصين تنقض في طليعة العالم الثالث على العالم المتطور . ولا يمكن أن تقع هذه الفرضية الا عندما تبني الصين قوتها ، في نهاية القرن الحالي على

أفضل تقدير . وقبل بناء هذه القوة هناك احداث كثيرة منها احتمال موت ماوتسي تونغ ، قد تعيد الصين الى التقيد بأهداف سياسية أقل عظمة .

اما بؤر الاضطرابات الاخرى ، **الشرق الاوسط ،وجنوب افريقيا ، وجنوب شرقي آسيا** ، التي تملك كل بؤرة منها خمائر عدم الاستقرار ، فان هذه البؤر لا تستطيع ممارسة أثر عالمي الا في أوقات الازمات بين الدول الرئيسية التي يكون لها مصلحة في استثمارها . ومن المؤسف أن هذا ليس بعيد الاحتمال .

ومن الممكن أن تتركب هذه الشبكة الكثيفة من الفرضيات بألف طريقة مختلفة . وقد رأينا أن هذه التراكيب تنتظم في فرضيتين اساسيتين تنصبان على المكان الذي ستحدث فيه الظواهر الثورية في بادىء الامر : الاتحاد السوفييتي أو أوروبا الغربية . وقد تؤدي كل فرضية من هذه الفرضيات الاساسية التي تملك كل واحدة منها خصائص مميزة مختلفة ، الى أحداث من طبيعة مختلفة جدا ، تبعا لما اذا كانت بطيئة ومتطورة ، عنيفة او بناءة . ولا شيء يسمح في الوقت الحاضر بتوقع الشكل الذي ستتخذه ثورة القرن العشرين ، ولا التحولات التي ستجرها هذه الثورة . واليقين الوحيد هو اليقين بالتغيير وضرورة اليقظة العالية لكي نستطيع في الوقت الملائم احتواء أخطر الاتجاهات . وان المسألة الحرجة لمستقبل فعال مطروحة علينا بكل امتدادها .

ووسط كل هذه الشكوك تظهر امكانيات هامة تضيء بعض المسائل التي تبدو غير قابلة للحل في الوقت الحاضر باشراقة جديدة كمسألة توحيد اوروبا . ومما لاجدال فيه

اليوم ان وجود دول قومية ، وتتمتع ببنيان قوي ، يشكل حاجزا هائلا امام كل توحيد سياسي . وبالاضافة الى هذا ، فان عملية التوحيد غير ممكنة مع الدول التي كانت تابعة من قبل للاتحاد السوفييتي في أوروبا الوسطى ، مادام الاتحاد السوفييتي يريد الاحتفاظ بنفوذه عليها . ويمكن لاحتمالات التحولات العميقة والاختبارات المشتركة في أوروبا الغربية أن تحضر الشروط الضرورية لولادة احساس بالتضامن الاوروبي الذي مازال في مرحلته الجنينية . وان الاصلاحات في البنية التي تعلن عن نفسها تستطيع أن تساهم أيضا في تحطيم اطار الدول القومية ، وتعضد الانشاء التدرجي لفيدرالية أوروبية حقيقية . واخيرا فان هذه الفيدرالية ستمتد دون صعوبات للدول الاشتراكية في أوروبا الوسطى اذا تعرض الاتحاد السوفييتي ، الذي هو مقر لاضطرابات داخلية لفترة خسوف سياسي . وهكذا تسمح بعض الظروف الخاصة ، اذا عرفنا استثمارها ، بتحقيق ما يبدو لكثيرين غير قابل للتحقيق او على الاقل مشكوكا به كثيرا . ومن الممكن أن نتصور أيضا اتحادا فيدراليا أوروبيا يمتد الى روسيا الجغرافية ، اذا رأت روسيا الجغرافية انحلال الاتحاد المركزي للاتحاد السوفييتي ، في ظل نظام جديد ، وانفجاره الى مجموعة من الجمهوريات المستقلة حقا. ويمكن التغلب بسرعة على « التحدي » التقني الامريكي على كل حال باقامة أوروبا الموحدة . وما ينبغي أن نراه جيدا هو أن الابعاد الثورية تفتح طريقا ممكنا الى أوروبا ، وهو حاليا مسدود بحواجز هائلة .

وبوسعنا ايضا أن نتساءل عن **مستقبل فرنسا** ، وهي

أمة متوسطة ، ذات موارد متوسطة ، وتملك أربطة مازالت حية بامبراطوريتها القديمة . ان فرنسا التي وضعها واقعها الجغرافي في مفصلة عالم الاطلنطي وأوروبا ، وفي مفصلة الايديولوجيات الليبرالية والاشتراكية ، ان فرنسا بوضعها هذا كأنها في مركز ثقل الحضارة التي تتحضر وتتهيأ . فاذا عرفت فرنسا كيف تثير حركة الافكار المطابقة لمطالب العصر وحاجاته ، فقد تصبح مهمتها هذه ايضا « أنموذجية » ويصبح نفوذها لايتقارن أبدا مع قوتها المادية . ويعتمد مصيرها – ومصير النخبة فيها – اذن على الانتليجنسيا التي ستعرف كيف تطوره . وتفترض هذه المهمة الرائعة أن تعرف فرنسا كيف تتجنب المبالغات الشاذة التي ضربت «ثورة الشباب الصاخب» في أيار (مايس) ١٩٦٨ المثل عليها من سوء الحظ ، كتصلب لفكر محصور في القالب في الابحاث التجريدية والمرتجلة دون ارتباط بالوقائع .

واني اذ أختم هذا الاستكشاف المستقبلي ، أعي كل الوعي بأني لم أقم الا بوضع الهيكل ، الدقيق جدا هنا ، والغامض جدا هناك ، والذي يسمح مع ذلك بفهم افضل لما يمكن ان يحدث .

ولقد احسست طوال هذه الدراسة باغراءات وسحر الامكانات المحتملة ، كما كنت في الوقت نفسه مذعوزا من بعض الابعاد . وقد فكرت تارة كثوري ، واتجهت تارة اخرى نحو تعقل رد الفعل . ولكني مقتنع عموما ، نظرا لان الامور ينبغي ان تتبدل – وينبغي أن تتبدل بالضرورة – بأن الموقف الاصلاحي الحازم وحده هو الموقف الوحيد الكفيل بتوفير التقلبات المستمرة وغير المجدية ، حتى ولو كانت متاخرة . واني اتوصل في استنتاجي اذن الى ضرورة وجود تقدمية

مصممة عقلانيا ، ومتحررة من كل رومانسية ، والا بمثل أعلى ، مبنية حسب طريقة قاسية لا يمثل هذا الكتاب بالنسبة اليها سوى تمتمة أولية لها ، وينبغي تحضيرها بالتأكيد .

صدر في سلسلة دراسات عسكرية عامة

- **حـــرب الانصـــار**
  اوتو هيلبرون
- **السبيــل الى القيادة**
  فيلد مارشال مونتغمري
- **الاستراتيجية وتاريخها في العالم**
  ليــدل هارت
- **الاختيار الصعب بين الدفاع والهجوم**
  ليــدل هارت
- **الحــرب الخاطفــة**
  الكولونيل ف. و. ميكشة
- **مدخل الى الاستراتيجية العسكرية**
  (طبعة ثانية)
  الجنرال اندريه بوفر
- **استراتيجية العمــل**
  الجنرال اندريه بوفر
- **الردع والاستراتيجية**
  الجنرال اندريه بوفر
- **حــد السيف**
  الجنرال شارل ديغول
- **الذكاء والقيم المعنوية في الحرب**
  الجنرال جــان بيريه
- **مختارات من الكتابات العسكرية**
  تروتسكي
- **الحرب الثورية في فيتنام**
  الجنرال بــونيه

صدر في سلسلة دراسات عسكرية عربية

- **الكفاح المسلح في وجه التحدي الصهيوني**
  اللواء الركن مصطفى طلاس
- **الوحدة عسكريا :**
  المضمون العسكري للوحدة العربية
  (طبعة ثانية)
  الفريق الركن صالح مهدي عماش
- **نحو استراتيجية عربية جديدة**
  اكرم ديري ـ الهيثم الايوبي
- **المقاومة عسكريـا**
  ابو همام (مسؤول عسكري في حركة المقاومة)
- **العسكرية الاسرائيلية**
  اللواء الركن محمود شيت خطاب
- **البارزانيون وحركات بارزان**
  (١٩٣٢ ـ ١٩٤٧)
  العميد الركن حسن مصطفى
- **التعاون العسكري العربي**
  العميد الركن حسن مصطفى
- **اسرائيل والقنبلة الذرية**
  العميد الركن حسن مصطفى
- **المساعدات العسكرية الالمانية لاسرائيل**
  العميد الركن حسن مصطفى
- **الحرب العراقية البريطانية (١٩٤١)**
  محمـود الـدرة

صدر هـذا الـكتاب تحت عنوان :

L'Enjeu Du Désordre

De La Contagion Revolutionnaire

à La Guerre Atomique

Edition Bernard Grasset - 1969

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 026 / رمضان / 1445 هـ
الموافق 05 / 04 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



هذا الكتاب

هـــذا الكتاب الرابع الذي تقدمه دار الطليعة للجنرال اندريه بوفر ، وهو محاولة لاستقراء التطور المقبل في الحضارة الغربية قام بها – بوفر – الذي يعتبر اليوم في العالم الغربي من ابرز الكتاب السياسيين والعسكريين .

ويشكل الكتاب على حد تعبير مؤلفه مسودة عجلى كتبها وسط احداث جد متحركة . وقد دفعه الى كتابته احداث مايو – ايار – ١٩٦٨ في فرنسا ، واحداث تشيكوسلوفاكيا في مارس / آذار / من العام نفسه .

الثمن ٤٠٠ ق. ل.
٥٢٥ ق. س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت